فيديريكو جانمير

أخفُّ من الهَواءْ

الحائزة على جائزة كلارين للرواية - 2009

ترجمة: محمد الفولي

رواية

الأعمال الكامله
t.me/kotbhm

فيديريكو جانمير

أخفُّ من الهَواءْ

ترجمة: محمد الفولي

مسعى للنشر والتوزيع
Masaa Publishing & Distribution

2019

FEDERICO JEANMAIRE

LIGHTER THAN AIR

TRANSLATED BY: MOHAMMED EL FOULY

أخف من الهواء / رواية
فريدريكو جانمير
ترجمة: محمد الفولي
العنوان الأصلي للكتاب: MÁS LIVIANO QUE EL AIRE

Federico Jeanmaire
Lighter Than Air
Translated by: Mohammed El Fouly

الطبعة الأولى - 2019

ISBN 978-1-988483-80-1

جميع الحقوق محفوظة

مسعى للنشر والتوزيع
Masaa Publishing & Distribution
Ottawa, ON. Canada
info@masaapublishing.com
www.masaapublishing.com

Copyrights © Federico Jeanmaire 2009
by arrangement with Literarische Agentur Mertin Inh. Nicole Witt e. K. Frankfurt am Main, Germany

يمنع نسخ أو استعمال أي جزء من هذا الكتاب بأي وسيلة تصويرية أو الكترونية أو ميكانيكية بما فيه التسجيل الفوتوغرافي والتسجيل على أشرطة أو أقراص مقروءة أو أي وسيلة نشر أخرى بما فيها حفظ المعلومات أو استرجاعها من دون إذن خطي من الناشر.

تصميم الغلاف: محمد النبهان
Cover Photo: Liliana Porter

وفي مُحيطِ الخواء

توجد أسماء وأسماءٌ وأسماء

وفي مُحيطِ التِّيه

توجد أسماء

من يُجيبُ على دفقة الروح هذه

التي تُناديهم؟

تَمَوُّج من أسماءٍ وأسماءٍ وأسماء

ما الذي يفصلهم عن الموت العظيم

في أحضانِ مَن كانوا؟

خوان خيلمان (محيطات)

الخميس، 29 نوفمبر

أرجوك، اجلس فوق غطاء المرحاض. لا تحسب أنني أُجبرك. إني فقط أظنك سترتاح أكثر عليه. أنا أيضًا سأجلب مقعدًا وأضعه بجوار الباب. سأقص عليك أمرًا ما. لا تُزمِجِر. سيسوءك هذا الحال، ولن تكسب شيئًا، ربما حتى قد يرتفع ضغطك. أقسم لك... سبق أن حدث هذا لي. هناك حكاية... حكايةٌ ما سأقصها عليك وأرغب بشدةٍ في البوح بها.

أرجوك، تأدب واصمت. اهدأ، توقف عن الضرب على الباب كأبله وأنصِتْ بهدوء. لن يضرّك أن تُنصت. الأفضل لك أن تفعل. أنا أعرف ما أقوله. كبار السن هم نبع المعرفة. قد يبدو لكم -وأتحدث عن معشر الشباب- أنه لا يُمكن تَعلُّم شيء من عجوزٍ في مثل سني. ثلاثة وتسعون عاما وعلى مشارف أربعةٍ وتسعين عامًا. عُمر طويل... أليس كذلك؟

الأمر يُعطي هذا الانطباع. لن أنكره، لكنَّ العُمر في الحقيقة يمرُّ سريعًا؛ فأيُّ امرأةٍ بمجرد أن تدرك أنها حية تجد فجأةً أن ساعتها قد حانت. معك حق إن لم تصدقني، لكنْ على الرغم من هذا فلأخبرك مجددًا أن الزمن يطير، يمرّ خطفاً -كما في الأمثال- قبل أن تُدرِك المرأة ما قد كان. وقد يبدو لأي امرأةٍ أن كل شيء قد حدث أمسِ أو ربما قبله بقليل، لكن لا أرغب في إلهائك بهذه المسائل. إذا سمحت لي، فسأقصُّ عليك ما أرغب في حكايته بخصوص أمي، وتنتهي المسألة ببساطة، وأَعِدك ألا أُزعجك بعدها.

بالفعل. بخصوص أمي.

هكذا تُعجبني. أن تصبح سهل المِرَاس، أن تفهم، أن تتركني أروي. أنت ما زلت شابًّا -حتى ولو لم تُؤَمِّن على كلامي- فأنا متأكدة من أنك تعتقد أن الحياة أمامك بطولها وعرضها، بكل امتداد زمانها. هذه كذبة بكل تأكيد. كذبة كبيرة مثل الزمن. ما زلت لا تعرف، وحينما تعرف -صدِّقني- سيكون قد فات الأوان، كما حدث معي. على أي حالٍ أشكرك على اهتمامك الآن بالإنصات... وبالمثل التعلُّم.

آه. حسنًا. لا رغبة لديك، لا لهذا ولا لذاك. اسمعني... ربما لا رغبة لديك أنت، لكني -على أي حالٍ- سأقصُّ عليك ما أرغب في قَصِّه. من الأفضل أن تعرف هذا من الآن. فلْتَبقَ هادئًا معي وسأحكي لك، وبعدها ستُخبرني إن أثارت المسألة اهتمامك أو أنها لم تُحرِّك بتاتًا شيئًا ما داخلك. على أي حالٍ، سمعي ضعيف قليلًا، وهو أمر ليس له حل. قُل هي مشاكل السِّن.

كان اسم أمي ديليا، لكنها تُدعى ديليتا، ومع أنني لم أعرفها، فاسمح لي أن أَدعُوَها ديليتا. بالنسبة لي هي ديليتا، ستظل دائمًا ديليتا. سترى كيف كانت الأمور.

لا يهمُّك أيضًا أن تعرف اسم أمي أو ماذا كانوا يدعونها؟

من المُستحسَن أن يهمَّك؛ فهذه هي المسألة التي أرغب في أن أُحدِّثك بخصوصها، وإذا لم تُسجل اسم البطلة فستصعب عليك مُتابَعتي. هي أمي علاوةً على ذلك؛ لذا لا تَكُن سيّئ التربية وتَحَلَّ بقليلٍ من الاحترام.

لا، لا، لا! هكذا لن نصل إلى أي مكان. إذا لم تَدَعْني أحكي فسيطول ما نحن فيه، وبالمناسبة لن أهتمَّ إن طال. أُخبِرك بالحقيقة. أنا وحيدة للغاية. وحيدة طوال اليوم، وحيدة طوال أيام حياتي، لكني أعتقد أن هذه القصة

يجب أن تهمَّك. أنت مازلت تفترض -وهو أمر ملحوظ- أن حياتك كلها لا تزال أمامك، أن هناك أمورًا كثيرة قد تفعلها، أن لديك مستقبلًا ومصيرًا، لكن بالنسبة لي -وأعتقد أنني قلت لك هذا، واعذرني حينما أكرره- كلُّ ما لديك هو العدم ولا شيء سواه، لكنَّ هذا ليس ذنبك. لا تظن أن لديَّ ضغينةً ما ضدك أو مشكلةً شخصيةً معك. لا، مُطلقًا. لا هذا ولا ذاك. أقول لك هذا لأنك أنت الموجود هنا، محبوسًا في دورة المياه، ولو كان هناك أي شخص آخر في مكانك لقُلت له نفس الشيء. أُقسم لك على هذا.

هكذا تبدو لي الأمور أفضل، أن تأخذها بصبر. الصبر هو رأس كل الفضائل. ما فائدة القلق، أو الإحباط؟ هما والعدم سواء. وأقسم لك على هذا أيضًا؛ أعرف ماهيَّة كلٍّ منهما: الصبر والإحباط... هكذا أفضل. لن أُعيد وأزيد وسأذهب مباشرة إلى قلب الموضوع: مسألة أمي. أقصد ديليتا.

لم أعرفها؛ لذا يصعب عليَّ أن أدعوها «ماما». ما يخرج من فمي هو ديليتا. هكذا كان يدعوها كلُّ من قصَّ لي شيئًا عنها حينما اشتدَّ عودي. المسكينة... لقد ماتت وهي في ريعان الشباب. كان عمرها ثلاثةً وعشرين عامًا بالكاد. حدث هذا منذ رَدَحٍ من الزمن في مطلع مارس 1916. ماتت بعد عامين بالضبط من ولادتي؛ لهذا قلت لك إنني لم أعرفها.

أصبتَ. أعترف أنكَ مُحِق. في الواقع عرفتها، لكنَّ الواقع مشكلة. لا تظنها مسألة سهلة جدًا كما حاولتَ أن تُبرهِن بالحجة منذ قليل. الواقع... يا له من شأن! هو أمر معقد جدًا، لكن إذا سألتَني، فقد أتشجَّع وأؤكِّد لك أن قصة أمي ترتبط كثيرًا بالواقع. أظن هذا أو ربما... لا أعرف حقًّا. هو أمر خطرَ ببالي. يصعب كثيرًا الحديث عن الواقع دون السقوط في بئر البلاهة.

حسنًا، سأبدأ الآن... لكن إذا أمعنتَ النظر، فستجد أنك مذنبٌ في عجزي عن حكاية قصتي عليك، تقضي وقتكَ في مقاطعتي... انظر... هذا

ما أقوله. ها أنتَ تُقاطعني مُجدَّدًا. بدا لي أنك هدأت، لكن لا... وها أنت الآن تتفوَّه بكل هذه الحماقات. هدأت لمجرد برهة... أتحدَّث عن الصبر.

بكل تأكيد. هكذا أفضل.

تكون ذكيًا إن تعاملت مع الأمور بصبر، بل دعني أخبرك: منذ دقائق أكَّدتَ أنك لا ترغب في الإنصات لي، أنك لا ترغب في التعلم، أنك مُتعلم بالفعل. أنت الآن -على الأقل- بدأتَ تتعلم الصبر، وإذا بِتَّ صبورًا فستصبح كلُّ علوم الحياة الأخرى أكثر سهولة. يصبح المرء عندئذٍ أكثر قابليةً للتلقِّي، أكثر إنسانية، أقل جشعًا.

ستشكرني بعد انتهاء الأمر، وربما قد أتعلم شيئًا منك. سيكون غريبًا أن أتعلم شيئًا منك. أنا عجوز للغاية لكي أُضطَرَّ إلى التعلم من مجرد فتًى، لكن هي جملةٌ تُقال في مثل هذه الحالات.

لا، لا! هكذا لا! هكذا لن تتقدَّم المسألة أو تتأخَّر. لن تستفيد أنت ولن أستفيد أنا. اجتزتَ مرحلة الصبر إلى نفادِه في غضون ثانيتين. أنت شخص غير مُستقرٍّ بصورةٍ كبيرة. هذا هو انطباعي. من الأفضل أن أُعِدَّ لنفسي كوبًا من الشاي.

أي نعم. كوبًا من الشاي، وأعتقد أنك -لمصلحتك- يجب أن تُوازِن الأمور في رأسك في هذه الأثناء.

أنا هنا بجوارك، على بُعد خطوات قليلة، فالمطبخ ملاصق لدورة المياه. لا أعرف إن لاحظت ذلك حينما دخلت. أقول لك هذا لأنك ربما عجزتَ حتى عن ملاحظة المطبخ بالجوار بعدما اشتدت عصبيتك -وحماسك أيضًا- بسبب المال الذي كنتَ ستسرقه مني. إن رغبت، يُمكنك أن تُفرِّج عن نفسك، افعلها بثقةٍ فسمعي لا يختلف من هنا لهناك. كما أخبرتك، في

الحقيقة سمعي ثقيل قليلًا، لكني أريدك حين أعود، بعد تناول الشاي، أن تتفّهم الوضع الغريب الذي وضعنا فيه بسببك، وأن تدعني أحكي لك دون مقاطعات.

استعِدْ رُشدك. من فضلك.

ولا تتوهَّم؛ حتى إن صرختَ أو ضربتَ الباب بأقصى ما لديك، فلن يسمعك أحد سواي. أؤكد لك. هذا هو الطابق الأخير من المبنى ولا أحد يعيش في الأسفل منذ سنواتٍ طويلة.

ديليتا كانت ترغب في الطيران. تحلم بالطيران. وكانت بديعة الجمال. آه لو شاهدتَ صورتها! سأريها لك لاحقًا، إن رغبت. سأمررها من أسفل الباب، إن وعدتَني بألا تُوسِّخها أو تُمزِّقها؛ فهي صورتها الوحيدة لدي. ديليتا كانت بهية الطلعة وشابة. كلُّ من عرَفوها قالوا هذا.

ديليتا أمي.

لا، من فضلك! سمعتُك من مائدة المطبخ تصرخ طويلًا دون أن أضايقك، وها أنت تقاطعني مجددًا بمجرد أن بدأت. اعتقدتُ أننا توصَّلنا إلى اتفاق.

حسنًا. صحيح أنه لم يكن اتفاقًا، لكن كنت أظن أنك -على الأقل- قد تفهَّمتَني وأنك -بعد أن فرَّجتَ عن نفسك بالعويل والضرب على الباب وعذَّبتَني بهما بينما أتناول الشاي- ستتركني أقصُّ عليك ما أرغب في حكايته عن أمي.

أي نعم. بكل تأكيد. أَنصِت إليَّ وتَعلَّم وستنتهي المسألة.

حسنًا. كنتُ أحكي لك أن ديليتا كانت ترغب في الطيران، وأنها كانت بديعة الجمال، جميلة بشكلٍ استثنائي. لا أقول هذا لأنني ابنتها. لا؛ فأنا لم

أعرفها. هذا هو رأي كلِّ مَن أحاطوا بها وكلِّ مَن عرَفوها. أما أنا فلا. كان حظي سيئًا. وُلدتُ قبيحةً مثل أبي... المكسين. أتدري؟ لم أعرف أبي أيضًا. نشأتُ مع الخالة ألثيرا. مات أبي على الفور بعد ديليتا. وإن كنتُ قد أخبرتك بأنه كان قبيحًا وأنني وُلدتُ قبيحة مثله، فهذا أيضًا بِناءً على تعليقات الآخرين، وأيضًا بسبب صورةٍ له عندي. إذا كنت ترغب، فسأُمرِّرها لك بالمثل من أسفل الباب، لكن فقط إذا وعدتَني بألا تُوسِّخها أو تُمزِّقها. سواءٌ هذه أو الأخرى.

لا، لا أخرج عن صُلب الموضوع مرةً أخرى. مسألة أبي ذات صلة؛ فقد مات من العار... أي نعم من العار... بسبب ما حدث لأمي.

لا تضحك. كان زمنًا آخر. للناس فيه شرف، ويمكن أن يعانوا حدّ الموت من الشعور بالعار، وهذا تحديدًا هو ما حدث لأبي. كان رجلًا عظيمًا لا يعرف الشر، من الرجال الشِّهام الذين لم يبقَ منهم أحد، لكنه ترك نفسه يموت من العار حينما حدثتْ مسألة أمي.

حسنًا. أنت لا تُصدقني، لكن هذا هو ما حدث: مات الرجل من العار. أغلق غُرفته. بقي في فراشه، وتَدثَّر حتى أُذنَيه، وظل يبكي طيلة اليوم، ولم يرغب في تناول الطعام أو الحديث مع أحد. لم يرغب حتى في رؤيتي؛ أنا ابنته الوحيدة ونور عينيه.

مات بعد ديليتا بعدة أسابيع فقط، والأسباب ستعرفها. صحيح أنهم غطَّوا مسألة أمي، وأنها لم تظهر في الصحف، بل ولم يُفتح ملف للقضية، لكن في بلغرانو، الحي الذي كنا نسكن فيه، كان الجميع أو المعارف على الأقل ؛ أقصد أصدقاء العائلة ومن يحيطون بنا ومن ينتمون إلى نفس طبقتنا الاجتماعية، يعرفون تمامًا ما حدث في «لونغتشامبس» ولم يتوقَّفوا عن تَناقُل الكلام... همسًا بكل تأكيد. كيف يقولونها؟ يتخافتون... وكانوا ينظرون إلى

أبي كما يُنظر إلى عِجلٍ حُمل للتوِّ على ظهر عربة نقل في طريقها إلى المذبح. أشعروه أنه البائس المثالي. أساؤوا معاملته وهَمَّشوه، وعلى ما يبدو لم يكن أبي قويًّا بالصورة الكافية لتحمُّل كل هذا؛ فهو في نهاية المطاف وفي أعمق أعماقه رجل. لا أعرف إذا كنتَ تفهمني. رجل مثلك، فتًى، كائن شديد الضعف. لم يكن امرأة، مثل ديليتا أو -أرغب أن أقول- مثلي.

اعذرني، لكن لا طائل مما تفعله الآن؛ أن تصرخ وتضرب على الباب كأنك إنسان الغاب. لم أكن أتحدَّث عن هذا النوع من الضعف؛ فأي شخصٍ يعرف أن الرجل أقوى جسديًّا من المرأة. لم يكن عليك أن تُثبِت لي أيّ شيء، لكن ها نحن هنا، ما فعلته للتوِّ يُثبِت أن معيَ الحق فيما قلته: البهيمية التي أظهرتَها الآن ليس لها فائدةٌ سوى التعبيرِ الكامل عن ضَعفِك أمامي؛ فأنا -بالرغم من كَوني عجوزًا- المرأة التي تتحكَّم في القصة. هذا هو نوع الضعف الذي كنتُ أُحدِّثك عنه، ضعف الشخصية أو العجز المُطلق الذي يُبديه الذكور كلما اضطُروا إلى مواجهة العالم بصفةٍ عامة أو أي امرأةٍ بصفة خاصة.

حسنًا حسنًا. اتركني أُواصِل من فضلك، وإن لم تَستَجِب فسيستمر ما نحن فيه إلى ما لا نهاية.

هكذا تُعجِبني. يظهر أنه -على الرغم من كونك رجلًا- فإنك أقل ضعفًا مما كان عليه أبي في تلك الأيام بخريف 1916. أنت أكثر قوة.

لا، لا أسخر منك. لماذا قد أفعل أمرًا مثل هذا؟ أقول لك الحقيقة.

من الأفضل أن تخرس وتتركني أُواصِل.

كنا نتحدث عن أبي الذي مات من العار بسبب ما حدث مع أمي، أو بسبب رد الفعل الذي انطبع في محيطه بخصوص ما حدث مع أمي. هذا أمر

لم يُعرف قط. أقول: أيُّهما أكثر أهميةً بالنسبة لشخصٍ ما: ما حدث أم ما يقوله الآخرون وما يفعلونه بخصوص ما حدث؟ لكن... ما الذي حدث أساسًا مع ديليتا؟ هذه هي القصة التي أرغب في حكايتها لك.

اصبر. أنا أحكي الآن.

لا، لا! ما قلته لك حتى الآن ليس مجرد حماقات، بل ضروري. إذا لم أقله لك، فلن تفهم بعدها شيئًا.

ديليتا كانت ترغب في الطيران؛ لم ترغب في إلقاء نفسها من أحد الأسطح، أو من نافذة في الطابق الرابع، ولا كعصفور أيضًا. ما كانت تصبو إليه هو الصعود على متن طائرة؛ لا كمسافرة أو رفيقة، بل ما كانت تسعى أمي خلفه حقًّا هو قيادة مركبة جوية. هكذا كانوا يُسمُّون الطائرات في ذلك الزمن. تخيل أنت... في 1916 وهناك شابة، امرأة جميلة من مجتمع بوينوس آيرس الراقي تسعى لقيادة طائرة. كان أمرًا مستحيلًا، مستحيلًا تمامًا.

لم تكن المرأة سوى مُجرد حيوان منزلي مُستأنَس، حيوان ثقيل الظل لكنه ضروري؛ ضروري من أجل تكاثُر الفصيلة أو الحفاظ على ثروات الأقارب أو إرضاء أحط الرغبات الذكورية، أو ربما ضروري لشيءٍ آخر طار من ذهني تمامًا الآن؛ لذا فلتعذرني يا فتى.

«جميلة فقط لا غير» هذا كان تعريف المرأة في تلك الأيام، لكن الزمان كان يتغير، وكلُّ ما شغل رأس أمي هو تطلُّعها لقيادة طائرة، وأنها كانت قادرة على فعل هذا كالرجال، وإن كانت ديليتا قد عجزت بكل تأكيدٍ عن إخبار أبي أو أي شخصٍ آخر، بل إن أي امرأة أخرى سواء كانت صديقتها أو عمّتها أو خالتها لم تكن لتوافق على هذه الرغبة.

كان هذا هو سِرَّها وعبْر الصبر -الآن سترى أهمية الصبر- تحيَّنَت

اللحظة التي انتقلت فيها من الانتظار إلى التنفيذ.

لا، لا، لن أسمح لك؛ فبمجرد أن بدأت... بمجرد أن أخذَت القصة مسارها ها أنت تُقاطعني، وفوق كل هذا تتفوَّه بمثل هذه القاذورات التي تقولها... لن أسمح لك... كُفَّ عن الصراخ بهذه الوساخات.

إن لم تكن استوعبت المسألة بعدُ فدعني أُخبرك أنك أنت من أوقفني بالشارع في اللحظة نفسها التي كنتُ أُخرِج فيها المفتاح من محفظتي السوداء لفتح باب المبنى وقلت لي، مُعتمِدًا على سكينٍ أو مُدية أو شيء لا أعرفه -شيء حاد كان يَخزُني في ظهري- أن أصمت وألا أستدير، أن أفتح الباب كأن شيئًا لم يكن وأن أُرافِقك حتى شقتي ببطءٍ وصمتٍ تامٍّ دون أن أَنبِس ببنت شَفةٍ أو أستنجد بأحدٍ، وأن أُعطِيَك بعدها، بعدما بِتْنا داخلها، كلَّ المال الذي أدَّخره.

آه آه، طبعًا... يمكنك أن تقول كلَّ ما ترغب في قوله عنِّي، كل ما يخطر ببالك، لكن هذه هي حقيقة ما حدث...

ماذا؟ آها... ما الذي ترمي إليه؟

إذا كنتُ قد اضطررت إلى خداعك وإخبارك بأنني أحتفظ بكل أموالي في خزانة الحمَّام الصغير الملتصق بالمطبخ -الحمام الذي تقبع بداخله الآن لتصرخ كإنسان الغاب- فهذا بكل بساطةٍ لأنني رفضت التَّخليَ لك عما لديَّ من مال. لماذا كان يجب أن أُعطِيَك مالي؟ فقط لأنك كنتَ قادرًا على قتلي بذلك السكين، أو المُدية، أو أيّ ما كنتَ تَخزُني به في ظهري؟

لا، ليس بهذه الصورة أو تلك. الذنب ليس ذنبي. إذا نظرت إلى الأمور جيدًا، فستجد أنك ارتكبتَ أخطاء كثيرة وحماقةً واحدة أساسية: هل تعتقد أن حياة أي إنسان لها قيمة أكبر وهو في عمر الثالثة والتسعين مثلي، أم وهو

في الخامسة عشرة أو السادسة عشرة مثلك؟

ماذا؟ أربعة عشر؟ هذا يزيد الطين بلَّة.

الحياة لم تَعُد لها قيمة بالنسبة لي. لا فرق عندي إن مت اليوم بطعنة سكين في ظهري أو بعد زمنٍ لا أعرفه -لكنه على أي حالٍ لن يمتد كثيرًا- فكم من الوقت قد يتبقى لي إذا تعرَّضتُ لالتهاب رئوي أو انزلقتُ في حوض الاستحمام؟ الأمران بالنسبة لي سيان؛ ولهذا خدعتُك. لو ساءت الأمور لكنت متُّ اليوم، قلتُ لنفسي: ولو سارت جيدًا فبمجرد أن تستدير لتبحث داخل الخزانة سأغلق باب الحمام بالمفتاح لتحبس في الداخل، ويصبح معي -لوقتٍ ما- شخص أحكي له قصة أمي أو أي شيءٍ آخر قد يخطر ببالي، وهو ما حدث بالفعل. كنتَ ترغب في سرقة مالي، وفي النهاية سرقت أنا وقتك.

أي نعم، يمكنك أن تقول ما يحلو لك، لكن وكما يقول المثل «طباخ السمّ يذوقه». تبدو متوترًا ومستاءً، ويبدو مستحيلًا أن تنصت لي بحماس. سأعدّ لنفسي طبقًا من حساء الشعرية بينما تهدأ، وبعدها سأواصل الحكاية.

لا، لا يمكن أن تأكل. إذا فتحتُ لك الباب لأُمرِّر لك طبق الحَساء، فستستغلُّ قوتك الذكورية وتطعنُني تلك الطعنةَ التي تصبو إليها مُنذ تَعارَفْنا... لا، لا أعتقد هذا.

يمكنك شُرب الماء من الصنبور. ضُمَّ يديك وخذ ما طاب لك، لكن بالنسبة إلى الأكل، فمن الأفضل حتى ألا تُفكر فيه.

أي نعم... لهذا السبب تحديدًا.

لو كنتُ مكانك لهدأتُ وتركت العجوز تحكي ما ترغب، إن لم يحدث هذا فستطول الأمور. لديَّ انطباع أنك ستموت من الجوع في الداخل؛ فلن أتركك تخرج قبل الانتهاء من حكاية قصة أمي لك.

لا، لست عجوزًا قذرة. أنت مخطئ. أنا مجرد امرأةٍ كبيرة في السن ووحيدة، فجأة هجم عليها مُجرم في الشارع، وداخل ظروف بائسة تمكَّنتْ من الدفاع عن نفسها قدر استطاعتها. سأذهب الآن لأُعِد الحَساء. ليت هذا الوقت ينفعكَ لتفهمَ الوضع وتهدأَ وتسترخيَ وتتركَني أحكي لك قسطًا جيدًا من القصة.

إلى اللقاء.

* * *

صار اليوم أجمل الآن. ظهرَت الشمس وتبددَت كل السُحُب تقريبًا... لا، لا تدخل في هذه الحالة. إذا كنتُ أصف لك، فهذا لأنك في الداخل؛ ليس لديك نافذة. مسكين! لا وسيلة لديك لمعرفة ما يحدث في الخارج. سأخبرك الآن بأمرٍ آخر. سأبدأ الآن في حكاية قصة ديليتا، لكن إذا قاطعتَني بقاذوراتك المعتادة، فسأُواصِل على أيِّ حال. لن أتوقَّف بين الفينة والأخرى فقط لأنه يستهويك التفوُّه بواحدةٍ من فظاظاتك.

هكذا ستسير الأمور. لقد حذَّرتُك. أنت من ستضيع منه أجزاء القصة، بالنسبة لي هي محفورة في ذاكرتي، قضيت حياتي كلها أفكر وأفكر فيما حدث في ذلك الفجر البعيد في «لونغتشامبس». أقول لك أيضًا إنني سأنتقل مباشرةً إلى اليوم الذي جرى فيه ما جرى فأنت قد أثبتَّ عدم صبرك، وعجزك عن تقدير أي من المكنونات السابقة في القصة.

يُعجبني هذا الصمت. يبدو أن كلًّا منا بدأ يفهم الآخر.

إذا وجَّهتَ لي تعليقًا أو سؤالًا صائبًا، فلن أُمانِع في التوقُّف عن سرد القصة لأُجيب على شكوكك فورًا، لكن إذا تعلق الأمر بسخافاتٍ وبلاهاتٍ فلن أتوقَّف. لِتَعلمْ هذا جيدًا.

«خفيف هو الهواء»، قالها ذلك الرجل لديليتا وهو يفتح بدماثةٍ البابَ الخلفي الأيسر للسيارة ليتركها تترجَّل. كانا قد أجَّرا العربة قبلها بساعةٍ عند ناصيةٍ مُشَجَّرة في «لاريكوليتا». أرفق الرجل عبارته القصيرة مع رسم تعبيرٍ ماكرٍ بعض الشيء على شفتيه. كانت إيماءةً متغطرسة من ذَكَرٍ حقَّق كل شيءٍ ممكن؛ أو ربما من الأفضل قول إنها إيماءةٌ متعالية من ذَكَرٍ ظنَّ أنه حقَّق كل شيءٍ يُمكن تحقيقه مع أنثى هشةٍ ذات نَسَب. الإيماءة كانت قذارة مُنحطة، والمشهد بأكمله أيضًا كان مُنفرًا، خاصةً إذا ما أخذنا في الاعتبار أنه بعدها بخمسٍ وأربعين دقيقةً بالكاد فإن تلك المرأة الجميلة التي كانت تستعدُّ للخروج من هذه السيارة المؤجَّرة ستموت. ديليتا أمي كانت ستموت. لم تكن الشمس قد أشرقت بعدُ، وهذا يعني -ضمن أشياء أخرى- أن تلك الليلة بالغة الطولِ لم تكن قد انتهت... تلك الليلة التي فتح فيها الرجل نفسُه بوحشيةٍ وبيده الغليظة أزرارًا لا نهاية لها في قميص ديليتا الأبيض، ورفع فيها -بيده الغليظة نفسِها وبالوحشية نفسِها- تنُّورتها البيضاء أيضًا، ليعثر على وسيلةٍ لشد لباسها الداخل -أيًّا كان لونه- عبْر سبَّابته والوسطى، وهما الإصبعان اللتان أظهرتا طيشًا كبيرًا في هذه المهمة. تمكَّنتا فقط من رفع لباسها بصورةٍ سمحتْ لذلك الرجل بإيلاجه بضعة سنتيمترات بالكاد -ربما ثلاثة أو أربعة لا أكثر ولا أقل- داخل حوايا ديليتا دون اعتبارٍ للزمان أو المكان، دون اعتبارٍ لنفورها التام. إصبعان حمقاوان كانت كلُّ مهمتهما تسهيل إيلاجه غدرًا داخل أمي دون أي اعتبار لرفضها، أو بمعنًى أصح قَبولها الجاف لشروط الصفقة الأحادية التي فرضها ذلك الرجل بكل تأكيد. إذا ركزتَ جيدًا فستجد أنهما تصرُّفان أبلهان: إيماءة الوجه المبتسم ومنظر أمي وهي تترجَّل من السيارة على الخلفية الصوتية لعبارته القصيرة، أو ربما هي حماقة صغيرة داخل أخرى أكبر، قل ربما أخرى عملاقة لا تُطاق؛ لأنه -ضمن أشياء كثيرة أخرى- لم تكن تلك العصارة

الذكورية اللزجة العنيفة وغير المُبالية قد جفَّت بعدُ داخل الجوف المظلم فيما بين ساقَي أمي. جَبَى الرجل بهذه الطريقة المقززة ثمنًا زائدًا عن بعض الخدمات التي قدَّمها لها: دروس تعليمها الطيران لمدة أسبوعين قبل ليلة اليد الغليظة، وحفظ السر الاجتماعي حول موضوع هذه الدروس، وربما أيضًا -وهو أهم شيء بالنسبة لرجل يبدو أنه كان يعرف جيدًا كيف يجبي ديونه- حفظ ذلك السر الآخر حول إعارتها الـ«فارمان» التي استوردها من فرنسا لرحلة الطيران التي كانت ستُنفَّذ في ذلك الصباح. «فارمان» هو اسم الطائرة التي استوردها الرجل من فرنسا للتو، أحدث موديل في تلك الحقبة... سأُواصِل الحكاية الآن.

قبلها بعدة ساعات، في غرفة الفندق الفخمة، كان الرجل قد طلب همسًا من أمي الدفع مُسبقًا؛ أن تسلم له جسدها؛ فهكذا كانت قد اعتادت أن تدفع ثمن المدة القصيرة لجولاتها عبر السماوات، وعلى الفور تَسرَّع وأضاف ما هو جلي: لا يمكن لأحد الجزم إن كانت المرأة التي علَّمها أدق أسرار قيادة المركبات الجوية خلال الأيام الماضية، والتي سيعيرها بكل شهامةٍ طائرته «فارمان» الحبيبة؛ ستعود إلى نفس المكان الذي ستُقلع منه في اليوم التالي.

نعم! برغم صعوبة تصديقك للأمر يا فتى؛ فذلك الرجل المُنفر استخدم كلمة «شهامة».

كان الرجل قد حصّل ما أراده لكيلا يبقى لديك أي شك؛ لهذا قالت له أمي بمجرد خروجها من السيارة: «رغبة المرأة أخف من هذا الهواء». وكان رده على تلك الكلمات التي لم يفهم عمقها، أن رسم تلك الإيماء الحمقاء على وجهه مرة أخرى، أو ربما لم يزلها أصلًا عن وجهه حتى استقرت ساق ديليتا اليمنى على أرض «لونغتشامبس» انتظارًا لهبوط اليسرى بنفس الطريقة قبل أن ترفع بقية جسدها مستندةً على يديها لتترجَّل من السيارة.

لكنك لا تعرف شيئًا يا عزيزي، وهذا -إذا سمحت لي- يرتبط بأنك عوضًا عن وجودك الآن في المدرسة، تُفضِّل سرقة العجائز العُزل بسِكينٍ في يدك. لكي تعرف، فـ«لونغتشامبس» كان المطار الوحيد في البلاد تلك السنوات.

اتركني أُواصِل من فضلك. ولا تَشرع مجددًا في مقاطعة حديثي.

لم تكن أمي تعرف إن كانت هذه إيماءةً جديدةً أم أن وجه الرجل لم يتغير، وإن كنت أشك أنها ستهتم بأيّ من الخيارين، كانت مقتنعة حتى أحشائها بأنها قد تموت يومًا دون أن تعيش ما رغبت في عيشه، أو حلمت به، أو ما تخيلت أنها ستصل لعيشه. قد يأتي هذا اليوم في أي وقت، كما حدث معي منذ عدة ساعات عند مدخل المبنى. حينها لم تكن تهتم -كما أظن- بالإيماءات الذكورية الحمقاء التي ارتسمت حولها. كان الموت قادرًا على اللحاق بها صباح ذلك اليوم، لكن ما كانت ديليتا مُتيقنةً من معرفته في ذلك الفجر البعيد أنَّ أمامها احتمالين، مجرد احتمالين فقط: أن تطير أو أن تظل امرأةً لبقية أيامها، فحين تكون رجلًا -كالذي كان بجانبها وارتسمت على وجهه إيماءة حمقاء- يعني الاختيار بين الأبيض والأسود... دائمًا وطوال أيام حياتك، مثل أن تكون طيارًا أو لصًّا على سبيل المثال، أو حتى أن ترفع التنانير بسهولة لاستيفاء أجر مسبق لبعض الخدمات. لكن على النقيض، يبدو لي أنه لكي تكون امرأة... لا أعرف. لست متأكدة... أن تكون امرأة يرتبط بدرجات؛ درجات من الأبيض أو الأسود، درجات تأتي وتذهب دائمًا بعد اختيار الذكور بين الأبيض أو الأسود، بعد الشعور بوخزة باردة في الظَّهر، أو يد غليظة فوق قميص، أو إصبعين حمقاوَين يرفعان لباسًا داخليًّا دون أدنى مقاومة، أو حتى بعد العصارة اللزجة في الظُّلمة المجوَّفة بين الساقين؛ لهذا كان على ديليتا إما أن تُواصِل كونها امرأة -وكانت تعرف بصورةٍ كبيرة

ما قد يحمله لها القدر حينها- أو أن تصبح طيارة، وتدفع ما يجب حين تضطر؛ لتكون حرية الاختيار لها هي فعلًا، لها هي، بكل كيانها، بين الأبيض والأسود. إذا ما تبقَّت لها رغبة ومستقبل بعد رحلة ذلك الصباح، كانت إما ستظلُّ تحتفظ بالدرجات الأُنثوية بين الأبيض والأسود لمُواصَلة المسيرة أو ستُحلق فوق العالم لقرونٍ وقرون. آمين.

أظن أن الأمور جيدة هكذا.

أرهقتْني حكاية كل ما قصصتُه عليك. ربما لستُ معتادةً على الثرثرة. أنت تعرف... أنا وحيدة. لا أتحدث مع أحدٍ تقريبًا. مع البواب أحيانًا أو بائع الخَضراوات، لا أكثر. هناك أيضًا فتاة المخبز. أذهب كذلك أحيانًا إلى متجر الحيوانات في المربع السكني المجاور. السيدة لطيفة للغاية وأفترض أنها تنتظر أن أشتريَ يومًا ما قطًّا سياميًّا. أترك المسألة تنطلي عليها وأقول لها يا لَجمالِ القطط وهذه التُّرَّهات، لكن لن أشتريَ واحدًا أبدًا. لا أُحبُّ القطط. لا أُحبُّها بتاتًا. أكرهها. يبدو لي أنها تعرف كل شيءٍ عن الإنسان. تعرف كل شيء ورغم قدرتها على البوح به، لا تقول شيئًا. تُفضِّل البقاء في صمتٍ والنظر إلى أعيُننا واللف والدوران حولنا والمُواء. لن أشتريَ منها أبدًا قطًّا سياميًّا. أذهب إلى المتجر لأنها تتركني أتحدَّث لبعض الوقت. تمنحُني حرية الحديث. هذا هو السبب الوحيد، وأيضًا لأنها لا تحب النميمة مثل البواب.

انظروا إلى الرجل! كان يبدو في شدة الضِّيق من المسألة، والآن يَستسمِحُني أن أُواصِل قصَّ حكاية أمي... أرأيت؟ كنتُ أعرف! لكن هذا غير ممكن. ليس الآن.

أنا مُنهكة جدًّا. أُقسِم لك. لا أقدر على المزيد. أنا ميتة من التعب. سآخُذ قَيلولةً وسأعود بعد فترةٍ قصيرة.

لا تَدخُل في هذه الحالة. لن أتأخَّر كثيرًا.

أَعِدك. مجرد ساعةٍ على أقصى تقدير. ما يكفي لأستعيد قوَّتي وأُواصِل الحكاية. استلقِ أنت أيضًا. هذا في صالحك. أنا أعرف ما أقوله. افرش المناشف على الأرض واستلقِ فوقها.

لا تُناقشني. لا تدع عنادك يقودك. سيكون الأمر مُريحًا بصورةٍ مثالية.

* * *

ها أنا قد عُدت. نمتُ قيلولةً جميلة. هل تمكنتَ من النوم؟

ستستطيع النوم يا فتى. لا تُثقل على صدرك هكذا. المسألة تتعلق بالتعوُّد. الأمور دومًا تتعلق بالتعوُّد في كل أَوجُه الحياة تقريبًا.

ستقدر على هذا. أُؤكِّد لك. بالنسبة لي -على النقيض- أعجبتْني كثيرًا مسألة أن أذهب للنوم وأنا أعرف أن أحدًا سينتظرني عند استيقاظي. هو إحساس جميل، لكن بمجرد أن فتحتُ عينيَّ أدركتُ أن كلًّا مِنا يعرف الآخر منذ فترةٍ ليست بالقصيرة، تحديدًا منذ هذا الصباح الباكر. أدركتُ أيضًا أنني أقصُّ على مسامعك أمرًا شديد الخصوصية؛ شيئًا لم أَحْكِهِ لأحدٍ قبلك وكن واثقًا من أنني لن أَحِكِيَه لأحدٍ بعدك، ورغم كل هذا ما زلتُ أجهل اسمك.

سانتي؟

آه! سانتياغو.

جميل. جميل. سأناديك سانتي كما يناديك الجميع. لا توجد مشكلة.

يدعونني «فايلا».

لا، لا أفكر في أن أُخبِرك باسمي الحقيقي. لن يحدث هذا تحت أيِّ

ظرف. لَم أُحبَّه قط. إنني أمقته. هو فظيع. أكرهه من أعمق أعماق روحي. أطلَقوه عليَّ تيمُّنًا بجدتي لأمي. هو رهيب... اسمي. من الأفضل أنا أُناديك سانتي وتُناديني فايلا ونظل صديقين كما كُنا دائمًا.

ماذا؟ كيف أكلت معجون الأسنان؟ لا تكن مجنونًا. ربما يُصيبك سوء. هذا المعجون غالبًا ليس سوى صابونٍ أو مطهر.

حسنًا... ستُضطرُّ إلى تحمُّل نتيجة فعلتك.

كان عليك أن تُفكّر في المسألة قبل وخْزي بهذا السكين في ظهري. أعتقد أيضًا أنها ليست أول مرة تمرُّ عليك عدة ساعات دون تناوُل الطعام؛ فأنت -إذا سمحتَ لي أن أقولها لك- نحيفٌ للغاية.

لا لا، من فضلك. لا أرغب الآن أن تحدّثني عن جوعك.

آها، بكل تأكيد... وبعد الجوع ستحكي عن ثمل أبويك وضربهما لك، وبعدها حكاية كونكم ثلاثة عشر شخصًا يعيشون متلاصقين في عشة خشبية صغيرة تغرق بالماء كلما أمطرت، لا... لستُ مهتمة بحكاياتك.

ولا، لن تجعلني أُغيّر رأيي حول الأمر، أخطأت كثيرًا إذ تعرّضت لي؛ لأنك اعتبرت أني مجرد عزلاء عاجزة، ضحية سهلة، الآن تحمّل تبعات فعلتك. هكذا هي الحياة دائمًا؛ مليئة بالمفاجآت. سأَحكي لك قصة أمي وأنت ستُنصِت بهدوءٍ وننسى مسألة أن تحكيَ أنت أيضًا.

لا تتفوَّه بكلماتٍ سيئة أخرى. أمرٌ قبيح للغاية أن أسمع ولدًا صغيرًا مثلك يتحدَّث بمثل هذا الانحطاط.

من فضلك. اهدأ. إذا هدأتَ فسأُواصِل حكاية ديليتا والرجل الآخر.

كيف لي أن أعرف ما دار في ذلك الصباح بينهما؟

انظر، لستُ متأكدةً من المسألة، لكنها أمي، وأعتقد أن هذا يتيح لي تخيُّل كيف جرَت الأمور التي حدثت لها، على الرغم من أنني لم أعرفها. هناك أيضًا أشياء كثيرة أدركتُها مع الزمن: قريبٌ يحكي لي، وآخر يضيف إلى ما قاله، أو أي واحدةٍ ممن كنَّ صديقاتها كانت تُوضِّح القصة لي بأدقِّ التفاصيل، وهكذا دواليك.

أكيد يا سانتي. معك كل الحق. لم يسمع أحد سواهما المحادثة التي جرَت بينهما في ذلك الفجر البعيد، لكن... ما الغاية من الخيال إن لم تكن ملء الفراغات الموجودة في الحكايات؟

لا، لا. ليست كذبة. ربما تكون الأمور قد جرَت هكذا، كما تخيَّلتها وربما لا، لكن هذا لا يهمُّني. ماذا ترغب أن أقول لك؟ هناك غايةٌ ما من وجود الخيال، ولسببٍ ما زرعه الربُّ في رأس كل واحدٍ مِنا، ولا تنسَ الحَدْس الأُنثوي. أيوجد من هو أفضل من ابنةٍ لتستشفَّ ما فعلتْه أو ما قالتْه أمُّها في أي صباحٍ منذ قرنٍ من الزمان؟! ليست كذبة. لا تُصِر.

هي أحد أشكال الحقيقة. هل تظن أنني لو تركتُك تحكي لي عن معاناتك من الجوع، أو مدى سُكْر وقسوة أبويك، أو الكيفية الصعبة التي تُنظِّمون بها مسألة نومكم أنتم الثلاثة عشر في العشة الخشبية الصغيرة، فإن كل ما تقوله سيكون حقيقيًّا؟

لا، تَعَقَّل من فضلك.

لن يكون كل ما ستقوله حقيقيًّا. ستملأ أيضًا الفراغات قدر استطاعتك. ستملأها بخيالك، بل ربما كنت ستفعلها دون أن تدري أنك تملأ ما تملؤه.

لكن اسمع بنفسك مدى بلاهة ما تقوله الآن! أحيانًا تبدو لي ولدًا صغيرًا يا سانتي. كم عمرك؟

أربعة عشر؟ مجرد أربعة عشر عامًا؟

سبق أن أخبرتَني بهذا؟

حسنًا، وما المشكلة؟ لا يمكنني تَذكُّر كل ما قلتَه لي. سبق أن أخبرتُك أن عمري ثلاثةٌ وتسعون عامًا.

أربعة عشر! إذًا أنت مجرد ولدٍ صغير. اعذرني يا سانتي، لكن عمرك ليس مناسبًا لسرقة العجائز العُزّل بمُديةٍ أو سِكين. يجب أن تكون في المدرسة الآن أو في منزلك مع أبويك تُشاهِد التلفاز.

هذا أمر قبيح. لا أتفهّم كيف لا يرغمك أبواك على الذهاب إلى المدرسة... ربما أبدو لك أنانية، لكن من الأفضل أن أُواصِل القصة التي أَحكِيها؛ فهذه أفهمها بصورةٍ أفضل. أعتقد أيضًا أن إنصاتك لي، إذا كان حقيقيًّا، سيُساعدك على تَفَهُّم حِكايتِك أنت. هذا هو ما يحدث في كثير من الأحيان.

بالفعل... صدِّقني، إن هذا هو ما يحدث في كثير من الأحيان.

إذًا... خفيف هو اهواء. أصرَّ ذلك الرجل على قولها وهو يُمسِكها من ذراعها. وعلى الرغم من أن أمي -بكل تأكيد- لم تحب إصرار الرجل على مقولته أو إمساكه لذراعها، فإنها تركتْه يفعلها وهي تُفكِّر في أن صاحب السيادة المُطلَقة على فُرَصِها في الطيران لا يزال يتخيَّل أنها تَدين له بشيءٍ ما، وأن إصراره وإمساكها من ذراعها يشكلان وسيلةً جيدة لسداد هذه الديون بصورةٍ نهائية. لم ترغب ديليتا في النقاش، لكنها على الرغم من إعراضها التام عن بدء أي مناقشة، كرَّرتْ له بنفس الصوت المنخفض أن رغبةَ المرأة أخف من اهواء. لحُسن حظها لم يَقُل الرجل شيئًا هذه المرة. لم يَرسم أي ابتسامةٍ مُنحطة على شفتَيه. الحقيقة أنه هو الآخر لم يَستهوِه النقاش حينها. كان قد

استوفى ما استوفاه مُسبقًا ويُفَضِّل الآن تغيير الموضوع؛ لهذا أبدى قناعةً بأن الأفضل أن يُخصِّصا ذلك الصباح أيضًا للتدريب، ويؤجلا إقلاعها لليوم التالي؛ بعدما هبت رياح جنوبية شرقية. أتخيل أن أمي حينها أرادت الصراخ في وجهه: لا... لا، بكل السُّبل الممكنة، إنها لن تنتظر يومًا آخر كما لم ينتظر هو دقيقة واحدة داخل الغرفة الفخمة في ذلك الفندق، لكن الصرخةَ لم تَخرج منها في الحقيقة. لم تَخرج قط، وظلت بالتأكيد تلف وتدور حبيسةً في حنجرتها حتى انطفأت، أو حتى تفهَّمَت أمي، ربما في لحظة من الألمعية؛ أن لا طائل من الصراخ، فلماذا ستصرخ بكلمة «لا» في وجه ذلك الرجل، إذا كانت متيقنةً من أنها بأي ثمنٍ ستُحلِّق في ذلك اليوم؟ تفهَّمَت أنه سواءٌ هبّت الرياح أم لا فهي ستطير في صباح ذلك اليوم. لماذا تتحوَّل إلى رجلٍ في اللحظة التي لا تحتاج فيها إلى ذلك؟ لأي سبب؟ كانت رجلًا حينما اضطُرَّت إلى فِعلها؛ تحديدًا في تلك الليلة شديدة الطول، التي لم تنتهِ بعد. الليلة التي فتحتْ فيها ساقَيها لتتركه يفعل ما يحلو له بيدَيه الغليظتَين. لم تَعُد في حاجةٍ إلى أن تصبح رجلًا. لا، كانت ديليتا قد سمحت لنفسها، قبلها بعدة ساعاتٍ، أن تعود امرأة مجددًا. دون مبالغاتٍ وبهدوء. امرأة جميلة يَدِين لها ذلك الرجل بإعارتها مركبةً جوية، طائرته الـ«فارمان» الحبيبة المُستورَدة للتوِّ؛ ولهذا بعدما ترجَّلَت من السيارة، تأبَّطت بقوةٍ الذراع اليُمنى له وأسندت رأسها بحنانٍ على كتفه. أبدى الرجل بكل تأكيدٍ تضايقه، انزعاجَه الشديد، لدرجة أن كلَّ ما فعله هو فكُّ ذراع أمي عن ذراعه بحركةٍ جافةٍ قبل أن يقترب من شباك السائق ليُسدِّد الأُجرة. انطلقَت السيارة، ومن مكانه، على بُعد ثلاثة أمتارٍ أو أربعةٍ من عينَي ديليتا، أصرَّ على تَكرار مسألة صعوبات التحليق في ظل وجود رياح مثل هذه، رياح قادمة من النهر ومُحمَّلة، كما قال، بخياناتٍ رمادية. قرَّرَت أمي، وأعتقد أنني سبق أن أخبرتُك يا سانتي، قبلها بفترة، وتحديدًا منذ اللحظة التي لم تخرج فيها الصرخةُ الحبيسةُ من حنجرتها، أنها ستتوقَّف عن كونها رجلًا، وأنها الآن

يمكنها أن تَعُود لتتعامل على أنها امرأة، وكان هذا هو ما فعلته: رَفعَت ياقة سُترتها القماشية بكلتا يدَيها لتُعطيَ ذلك الرجل انطباعًا لا مناص منه أنها تشعر بالبرد، وهنا وبينما هي واقفة وحيدة كما اعتادت؛ لم يجد الرجل مفرًّا من نسيان مسألة الرياح لبعض الوقت ليقترب من مكانها ويُغطيها بإحدى ذراعَيه. أدرك على الفور أن هذه الذراع لا تكفيها؛ فهي لا تزال ترتعش؛ لهذا ابتعَد عنها عدة سنتيمترات ونزع سُترته وسارع بوضعها فوق كتفَي أمي وظهرها. ابتسمتْ له حينها -ليس قبلها- وافترض الرجل بعد هذه الابتسامة أن ديليتا تفهَّمَت أخيرًا أنها لن تقدر على الطيران في ذلك الصباح، أنها مُجرَّدة أمامه بالكامل. لكن دعني أُخبِرك بشيءٍ يا سانتي وركز كثيرًا فيما سأقوله وحاول ألا تنساه أبدًا: تجريد أحدهم من كل شيءٍ، أو افتراض أن أحدهم قد جُرِّد من كل ما يملكه ليس أمرًا جيدًا، فبوجهٍ عام كلما نجحنا في هذا، أو افترضناه؛ فإن الشيء الوحيد الذي نُحقِّقه على المدى الطويل هو نقيض ما كنا نصبو إليه، وهو أن ذلك الآخر سيبدأ في الدفاع عن نفسه، والخطرُ كلُّ الخطر أن يبدأ أحد في الدفاع عن نفسه. إن لم تُصدِّقني، فانظر إلى ما حدث لك معي، رأيتني مُجرَّدة من كل شيءٍ صباحًا عند مدخل المبنى، ومعك سكينًا حادًا يَخزُني في ظهري، لدرجةٍ جعلتْني لا أفكر في شيءٍ إلا ما يجب عليَّ فعله للدفاع عن مالي. أقصد: ما الحل لكي أمنعك من سرقته بكل سهولة؟

لا أصدقك.

أنت تكذب عليَّ يا سانتي.

وصل الأمر إلى شعوري ببرودة النصل! يا لَلهول! كيف تتجرَّأ حتى على فعل شيءٍ مثل هذا؟

مجرد إصبع؟ هل أنت متأكد؟

السبابة؟

لا بد أن أظافرك طويلة للغاية. أُؤكِّد لك أنني شعرت بنصل السكين على ظهري. ما الذي تنتظر مني قوله؟

أنت كاذب يا سانتي. بخلاف كونك قاطعَ طريقٍ ولصًّا ومستغلًّا للعجائز، فأنت كاذب كبير.

مُزوِّر.

وَلدٌ حثالة.

كيف تتجرأ على مهاجمة الناس بمجرد ظُفر؟ هذه سخافة وحماقة؛ يومًا ما قد يُدرِك أحد هذه المسرحية وستنتهي لُعبتُك بصورةٍ سيئةٍ للغاية، بل إنك قد تتعرَّض للقتل.

أنت مجنون. وأنا محبطة من سلوكك. أشعر بأنني تعرَّضتُ للخداع. أنا مُحبطة ولم تَعُد لديَّ قوة لمُواصَلة الحديث. سلام.

* * *

أظنني أَحسنُ الآن. مرَّ بعض الوقت. آسفة. احتجتُ للتفريج عن نفسي. البُكاء لبعض الوقت وأنا وحيدة، في غرفتي. أن تهاجمني بظُفرك يختلف عن أن تكون فعلت ذلك بسكين، أو بمدية صغيرة، لا أعرف إن كنت تفهمني.

لا. ما الذي قد تفهمه؟

لكن الأهم هو أنني تفوَّقتُ عليك. لقد زال استيائي.

لا، لا أفكر في تركك تخرج من دورة المياه بعدما قلتَ لي هذا؟ كيف

يخطر ببالك هذا الظن؟ كيف لي أن أعرف الآن أنك لا تختلق هذه الكذبة، وأنني حينما أفتح الباب لن تستغل المسألة لتهجم على عنقي بمُديةٍ أو بسِكينٍ كبيرٍ كان معك بالفعل حين هاجمتني صباحًا؟

اعذرني يا سانتي، لكن إذا كنتُ لا أصدقك فهذا لأنك اكتسبت سُمعة الكاذب الفظيعة أمام عينيَّ، وبدايةً من هذه اللحظة سيصعب عليَّ كثيرًا تصديق أي شيءٍ قد تقوله.

كنت سأُفضِّل أن تكون قد هجمتَ عليَّ بسكين، أن تكون قد هاجمتني وَفقًا للأصول. ما فعلتَه كان تزويرًا. الشيء الوحيد الذي يساعدني -لكي أكون صادقةً معك- هو معرفة أن مَن يكذب في مثل هذا، قد يكذب في أي لحظة. أقصد أنه قد يكون معك سِكينٌ بالفعل في الداخل وتحاول اكتساب ثِقتي لأفتح لك الباب. سآخذ حذري يا سانتي. لا تظنني حمقاء. أُؤكِّد لك أنني لن أنخدع بسنواتك الأربع عشرة. أبدًا.

لا، لا، أنت مخطئ. لستُ عجوزًا كاذبة. كنت مضطرة لخداعك، دفاع مشروع وليس أكذوبة، لا يا سيدي، لن أسمح لك، كنت أحاول إنقاذ القليل الباقي لي من المال والقليل المتبقي لي من الحياة، وربما هما الاثنين.

سبق أن شرحت لك هذا.

الخيال. هذا هو اسمه يا سانتي وليس الكذب. الكذب هو ما تفعله أنت. التهجُّم على الناس بسبابتك لسرقتهم. هو ظُفر شديد الطول بكل تأكيد، والقذارة أيضًا، لكن سأُوضِّح لك شيئًا ما، فربما في إحدى المرات ستبدأ تفهمني.

أخبرتك أن الخالة ألثيرا هي من ربَّتْني بعد وفاة أبويَّ، لكن يجب أن أقول لك إنني ربَّيتُ نفسي بنفسي. لم تحبني الخالة ألثيرا قط. أنا مقتنعة أنها

كانت تراني شيطانًا من لحم ودم، ربما حيوانًا بشعًا أو مشوهًا، وعلى الرغم من خروجه من رحم أختها ديليتا؛ فقد رأت فيه الخطيئة بعينها، ذكرى يومية بالخطيئة القاتلة التي ارتكبتها أختها بحقها، كانت تشعر أن ما فعلته أمي كان مُوجَّهًا ضدّها، وهدفُه هو تدمير حياتها عمدًا مع سبق الإصرار. لم تسمح لي بمرافقتها إلى أي مكان، وكانت تقول إنني أُذكِّرها بكل ما حدث في «لونغتشامبس». لم تسمح لي حتى أن أختلط بابنتَيها، ابنتَي خالتي. كانت تفكر بكل تأكيدٍ أنني سأنقل لهم عدوى الخطيئة التي حملتُ أوزارَها فوق كاهلي منذ المهد. نشأتُ وحيدة، مع خدم المنزل الذين ازدرَوني هم أيضًا ولم أعرف السبب. نشأتُ وحيدة وبقيتُ وحيدة طيلة حياتي؛ لهذا غضبتُ كثيرًا يا فتى من أنك خدعتَني.

تَملَّكني إحساس جميل عصرًا، إحساس فريد. أعتقد أنها كانت أول مرة في أعوامي الثلاثة والتسعين أنام قيلولتي متيقنة أن رجلًا ما سينتظرني حالما أستيقظ، رجل -وهو أنت يا سانتي- سيمكث منتظرًا وتأكله الرغبة لأُواصِل له حكاية ما حدث مع أمي في ذلك الصباح الفظيع منذ نحو قرن. إحساس فريد يا فتى، لكنك حطَّمتَه، دون أي اعتبار، بأكذوبتك المُعبَّأة بأظافر طويلة وقذرة ومُنفِّرة.

نعم.

أعتقد أن بإمكاني مسامحتك، لكن امنحني بعض الوقت من فضلك. دفعتَني لتَذكُّر وحدتي في اللحظة التي ظننتُ أنني أخيرًا عثرتُ على من قد يهمه حقًّا معرفة ما حدث لأمي. الوحدة قبيحة.

وحيدة طوال اليوم وطيلة كل الأيام.

لا تعرف ما أتحدث عنه. كيف ستعرف؟ لك أصدقاء يدعونك سانتي،

أما أنا فلا. ينادونني «فايلا». طلبتُ منك أن تُناديَني «فايلا»، ورفضت إخبارك باسمي الذي أكرهه، لكن الحقيقة يا عزيزي أنني أمقت أن أنادى «فايلا». هو اسم أطلقته عليّ ابنتا خالتي، ولا أظنك تحتاج أن أخبرك بعمق الازدراء الذي كانتا تنطقانه به.

لا تُصِر. لن أُخبِرك.

هل ترغب حقًّا في معرفته؟

انظر يا سانتي. لا تخدعْني مرةً أخرى من فضلك. إذا ضحكتَ أو تفوهتَ بحماقةٍ بخصوصه، أُقسِم لك أنني سأتركك محبوسًا ووحيدًا هنا، بل ولن أُواصِل حكاية ما حدث لأمي لك. سأتركك هنا محبوسًا إلى الأبد.

رفائيلا.

لا، لا. كيف يمكن أن يعجبك اسم كهذا؟

لا تتحامق فأتركك محبوسًا ها هنا إلى الأبد. أنت لا تعرفني. هل تُدرِك نوع المزحات التي اضطُرِرتُ لتحمُّلها من ابنتَي خالتي؟

«ليتا»؟ لماذا «ليتا»؟

ليس سيئًا. كنت ستُعجِبني يا سانتي، لولا خُدعَتك في بداية تَعارُفنا.

بكل تأكيدٍ يا عزيزي... يمكنك أن تناديَني «ليتا» منذ الآن. إن في أعماقك شخص جيد لديه مشاعر طيبة، بل أقصد نوايا طيبة... «ليتا»؟ شكرًا يا سانتي! أعتقد أنني أُحِبه.

لكن لا، لست مُستعِدةً لاستثارة عواطفي. إن حدث هذا فسأنتحب مجددًا. بكيتُ كثيرًا على مَرِّ سنين، وكذلك منذ مدة قصيرة؛ لذا من الأفضل أن أستمرَّ في قَصِّ حكاية أمي.

أترى؟ كما قلتُ لك. هناك أمور تحتاج معرفتها لتَفهَم ما الذي جرى في ذلك الصباح في «لونغتشامبس»، لكنك بسبب تعجّلك ترفض الإنصات ظنًّا منك أنني أبتعد عن لُب الموضوع.

قبل عدة أيام من ذلك الفجر المنحوس، كانت أمي قد تعرَّفَت على ذلك المُنحط في حفلٍ أُقيمَ تحديدًا على شَرَفه. رحَّب رئيس الجمهورية شخصيًّا به على باب المسرح العملاق، أعتقد أنه مسرح كولون. لا أعرف حقيقةً. وبعدها دخل الرئيس مُتأبِّطًا ذراعه مُبتسمًا وضاحكًا. كان الجمهور الغفير الذي ينتظر بالداخل قد نهض وصفَّق لهما بمغالاة، أما هي فلا. ديليتا لم تفعل هذا. بقيت جالسةً ولم تصفّق معهم. أعتقد أنها علمت أن هذه هي فرصتها الوحيدة لِلَفت انتباه أول أرجنتيني يمتلك طائرة «فارمان»، تلك التي كانت ستحلق فوق «لاكوستانيرا سور» في التاسع من يوليو، احتفالًا بمئوية الاستقلال. لم يرغب الرجل إظهار تنبهه لهذا التجاهُل، رغم أن ديليتا اجتهدت لتكون في طليعة صف الترحيب، لا أشكّ أن الأمور كانت على ما يرام ضمن حساباتها، ولا أظن هذه الحسابات تضمّنت لغزًا. هذا ما يحدث دومًا مع النساء اللاتي يَسعَينَ لنَيْل أمرٍ ما من رجل. يحسبن كل شيء، لا يتوقفن عن الحساب. لا نتوقف، نخطط حتى لأدقِّ التفاصيل الجغرافية التي سنُنفِّذ المسألة بها، إذا ما تبيَّنت لنا أهميتها بكل تأكيد.

بالفعل مثلي. معك كلُّ الحق، لكنْ من الأفضل أن أُواصِل.

أَدرَك الرجل فورًا أن السيد برفقتِها هو بكل تأكيدٍ زوجها؛ إذ كان ينظر إليها متجهمًا، وهي أقسى طريقةٍ خطرت للمسكين لتأنيبِ السيدة على أحلامها. كانت ديليتا تُجاوِبه بجَفنَين ذابلين وشيء من حمرة الخجل، وهي الطريقة التي تعلَّمتْها منذ الصِّغَر ومكَّنتْها من الظَّفَر بقليل من السلام أمام الوعي التربوي الذكوري المُفتقِر إلى الثقة. لم يَتوانَ الرجل حينها عن التقدُّم

نحو الثنائيِّ في اللحظة نفسها التي رَفعتْ فيها المرأةُ شديدةُ الحُسن جَفنَيها. قال الرجل: مساءُ الخير. وحينها ردَّ عليه أبي -زوج ديليتا- التحيةَ ورحّب بإفراط، ترحيبًا لم يكن هدفُه تَكريمَه، بل دفْعه إلى نِسيانِ تَصرُّف زوجته الحبيبة السيّئ على مَرأَى العِيَان، ولْتَعلمْ أيضًا يا سانتي أن أبي، بخلاف حُبِّه الزائد عن الحدِّ للنبيذ، قد كان أكبر بكثيرٍ من أمي.

بالفعل. كان الرجلُ الآخر أيضًا أكبرَ منها.

«مساء الخير». أجابتْه ديليتا ولم يكن في نيتها إلا الاستمرار في إظهار التجاهل، لكن أيًا من أمارات الارتباك لم تبد على الرجل، وشرع على الفور في قَصِّ الروائع عن طائرته الـ«فارمان» المُستورَدة والتعليم الكامل الذي تلقَّاه لقيادتها لعدة شُهور على الأراضي الفَرَنسية. قالت له أمي، بعدما اقتنعتْ بأن كلَّ ثرثرتِه باتتْ كافية: «ديليتا». لكن ذلك الرجل لم يَفهَم واضطُرَّت حينها إلى أن تُوضِّح: «ديليتا، اسمي ديليتا». على الفور فهم أبي أنه لم يبق له مكان في هذه المحادثة، وأن بإمكانه الاختفاءَ قرب البار دون أن تُؤنِّبه ديليتا. ابتكر تحيةً يَصعُب تصديقُها واختفى بحماسٍ جليٍّ. قال لها الرجل عندئذٍ: «ديليتا. اسمُكِ له وقْعٌ جيد». واكتفتْ أمي فقط بالرد بكلمة: «شكرًا». الصمت واحد من الأمور التي يَمقُتها الذكور الذين يقتربون في أوقاتٍ غير مناسبةٍ من النساء اللواتي يُبدين لهم لا مبالاتهن.

هكذا تسير الأمور يا سانتي. صدِّقني. ما زلتَ صغيرًا على معرفة هذه الأشياء.

«عزباء؟». باغتَها الرجل بسؤاله بعد عدة لحظات، وتحديدًا في اللحظة التي عجز فيها عن تحمُّل كل هذه الوحدة العلنية لوقتٍ أطول. أجابتْه ديليتا: «لا، بل متزوجة». لكن المسألة لم تتحسَّن يا سانتي، إلا أنه ربما بدا لديليتا أن إذلاله والتقليل من شأنه بهذه الصورة بات كافيًا. أقصد أن وقت مساعدته

قليلًا للخروج من المُستنقَع الذي ألقى بنفسه فيه قد حان، وحينها ساعدته بسؤال: «هل الرجل حيوان؟». لم يبدُ له سؤالًا سيئًا، ولا سيئًا أن تمتلك المرأة الجميلة أمامه ذكاءً بيّنًا؛ لهذا أجابها: «الرجل حيوان يرغب في الطيران لكن الطبيعة لم تُجهِّزه لذلك». لكن الجواب لم يكن كافيًا لديليتا، وسألتْه من جديد: «والمرأة؟». أجابها ببلاهة: «المرأة ملاك». وهو الرد الذي -كما تعرف يا فتى- لم يَرُقْ لأمي مطلقًا؛ فمَن يُؤكِّد أن المرأة ملاكٌ؛ يسعى لرسم صورتها على أنها مجرد طيفٍ بجناحَين، كيان له طابع سماويّ ليس في حاجةٍ بتاتًا إلى الطائرات واعتلاء السُّحُب. وهنا تكفَّلَت ديليتا بمهمة توضيح الأمر له بغضبٍ جلي: «لا أعتقد أننا، مَعشرَ النساء، ملائكة». فاقتصر كل ما فعله الرجل حينها على التنهُّد بكلمة «آه». لديَّ قناعةٌ يا سانتي بأن هذه الـ«آه» هي التي شجعتْه على رسم إيماءته الحمقاء على شفتَيه لأول مرةٍ أمام أمي؛ ولهذا تجرأتْ ديليتا على توجيه ضربة مخلبها بقولها: «لستُ ملاكًا؛ ولهذا السبب تحديدًا سأسعد بالعثور على رجلٍ يجرؤ على تعليمي الطيران، وإن كنتُ لا أعرف إن كان هذا الرجل أو متى سيكون موجودًا بين الذكور على الأرض بكل اتساعها».

لا يا عزيزي. لن أسمح لك بالتفوُّه بهذه الأمور عن أمي. أنت لا تعرف معنى أن تكون امرأة، ولن تعرفه أبدًا. أما أنا فأحفظه، وأمي أيضًا كانت تعرفه جيدًا.

حسنًا. أقبل اعتذارك يا سانتي، لكن أوصيك مستقبلًا بأن تتوخَّى الحذر في تعليقاتك بخصوص أمي أثناء حديثنا. أنت لا تعرفني وليس لديك أدنى فكرةٍ إلى أي حدٍّ قد أصل إذا تعلَّق الأمر بها.

انتهينا. لقد سامحتُك. اتركني أُنْهِ ولو لمرةٍ واحدةٍ كيف تعارفا... شكرًا.

ظلت الإيماءة الباسمة أو ربما الحيرة الناجمة عن كلمات ديليتا الأخيرة

له، بل قُل الأمرين معًا، عالقَين لفترةٍ في الهواء، فترة سمحتْ لمن تزاحموا بجوارهما بالدخول في المحادثة. هو أمر طبيعي جدًّا في ظِل هذه الظروف، لكن كان هناك أمر سيحدث، أمر لم يتوقَّعه الرجل، وهو أنه بمجرد انتهاء فقرة السؤال والجواب، فإن تلك الشابة الجميلة تسللتْ بعيدًا عنه في صمتٍ تجاه البار الذي كان زوجها يتحاور عليه مع مدعُوِّين آخرين.

هذا هو ما حدث يا سانتي. صدِّقني حينما أقول لك إن ذلك الرجل وجد نفسه بغتةً تائهًا بين جمعٍ من الأشخاص لم يتوقَّفوا عن تهنئته أو توجيه أسئلةٍ حمقاءَ وأمي شديدة البُعد، نائية عنه. لم يَرَها مرةً أخرى إلا في نهاية الليلة، في اللحظة التي حيَّته فيها بشبح ابتسامة، بعدما وضعتْ معطفها فوق كتفيها، لكنه كان كافيًا ليَثِبَ عند أُذنها اليمنى، دون أدنى اعتبارٍ للتقاليد الاجتماعية في تلك الحقبة، ليقول لها إنه سينتظرها في اليوم التالي في «لونغتشامبس» و«من فضلك، في تمام التاسعة صباحًا» لبدء فصول تعليم التحليق الجوِّي.

نعم. هذا ما حدث... أنا متأكدة بلا أدنى شكٍّ أن هذا هو ما حدث في تلك الليلة.

أي نعم. متأكدة.

دورُ الخيال تكميليٌّ فقط. لا يخترع تفاصيل غير قائمة يا فتى. ما زلتَ لا تفهم كيف تعمل المسألة. هذا هو انطباعي. الخيال يملأ ويُكمل ويُغذي فقر الواقع.

وكيف لي أن أعرف؟ انظر الآن إلى الأمور التي تخطر ببالك! أفترض أن ما فعله أبي كان صوابًا بسبب الظروف؛ أقصد أن يتركهما وحدهما وأن تعتذر ديليتا بصورةٍ مُلائمة. وكيف لي أن أعرف! ربما كان لا يرغب في مضايقتهما أو أن يكون عقبة، أو ربما لم يكن مهتمًّا بالموضوع. أعتقد أنني سبق أن قلت

لك من قبل حينما قصصتُ عليك كيف مات، إن أبي كان شهمًا حقيقيًّا لا يعرف الشر، مِن صِنف الرجال الذين باتوا عُملة نادرة. إذا كان قد فعل ما فعله، فهذا لأنه كان ما يجب عليه فعله، وانتهينا.

قلت لك: وانتهينا.

يا لَسخافتِك! كونك لم تكن لتفعل ما فعله أبي لا يعني شيئًا يا عزيزي. ما تقوله والعدم سواء. اعذرني فيما سأقوله، لكن ربما تكون ظريفًا، ربما تكون صُحبتك جيدة، لكنك لست شهمًا. أنت بالكاد مجرد ولد صغير أسمر عديم التربية يعاني من مشكلات حقيقية في تصرُّفاته وغير مستقر اجتماعيًّا، مجرد مجرم وسارق عجائز.

احذر. لن أسمح لك بهذا. أبي لم يكن أحمق بالمرة؟ كيف تتجرَّأ على قول ما قلتَه؟ أظن أنك هذه المرة قد تماديت جدًّا يا ولد. تماديتَ جدًّا جدًّا.

سَمعتُك يا سانتي. كنتُ هنا بجانبك، بالقرب منك، في المطبخ، وسأُخبرك بشيءٍ ما: يبدو أنني لستُ صماء بالصورة التي كنتُ أتصوَّرها.

بالفعل. كل شيء. سمعت كلَّ شيءٍ ولا أفكر في الردِّ عليك. لا يا سيدي ولا تحت أي ظرف. اعتذر لي وحينها سأتظاهر بأنني لم أسمع شيئًا قط.

حسنًا. أعتقد أن هذا هو أفضل ما يمكننا أن نفعله. عفونا عنك... أين كنا قد توقَّفنا؟

لا، هذه المسألة أنهيناها بالفعل؛ أعني كيف تعارفا. قد أُضيفُ فقط أن ديليتا كما تتخيل ذهبتْ صباح اليوم التالي في تمام التاسعة لتَلقِّي أول فصول تعلّم الطيران، وأنها بكل تأكيدٍ كرَّرَت الأمر في «لونغتشامبس» لعدة أيامٍ تَلَتْ ذلك الصباح الأول.

لا، لن أقصَّ عليك شيئًا مما حدث في هذه الفصول. لا تَدعْ هذا الأمر

يخطر ببالك. كانا أسبوعين.

ولماذا؟ سيكون إضاعةً للوقت، وأنا يا عزيزي لم يتبق لي وقت طويل كما تعرف.

لا تُصِر. لن أتعمَّق في هذه الصغائر. سؤالي هو أين توقَّفنا قبل أن أحكيَ لك قصة تعارُفهما في المسرح؟

آه بالفعل، شكرًا جزيلًا. أتذكَّر الآن. إذن، كنا قد توقَّفنا عند النقطة التي أَدرَك فيها الرجل أن ديليتا ترتعش؛ لهذا خلع سُترته المصنوعة من الشمواه وبادر بوضعها فوق كتفَي أمي وظَهْرها. ابتسمتْ له على الفور وجعلتْه هذه الابتسامة يظن أن أمي باتت مُجرَّدة بالكامل.

صحيح. كانت سُترة الرجل من الشمواه. لم أقل لك هذا سابقًا لأنه قد تاه مني، وليس لأني ابتكرته الآن، كذلك، ربما كنت منهكة من سرد كل شيء مرة واحدة، ولم أنتبه لمسألة الشمواه. أنا عاجزة نوعًا ما، أنت تعرف أن سني ثلاثة وتسعين عامًا.

من فضلك! ما أهمية أمرٍ كهذا؟ كأنك تبحث عن أي هُراءٍ، عن قِط بخمس أرجُل مثلًا!. اتركني أُواصِل.

شكرًا.

كان مفتاح قفل بوابة المطار بحوزة هذا الرجل. هكذا كانت الأمور في تلك الحقبة. لا تعتقد أنه كان يوجد موظفون ورجال شرطة أو حشد ينتظر إقلاع الطائرات.

لا يا سانتي، حتى القوات الجوية لم تكن موجودةً في تلك الأزمنة.

حسنًا... أَخرَج الرجل مفتاحًا وفتح القفل ودفع قليلًا إحدى ضلفتَي

البوابة وتنحَّى جانبًا ليسمح لديليتا بالدخول أولًا وتبعها فورًا، ثم استدار بظهره ودفع ضلفة البوابة وأغلق القفل مجددًا.

ما تقوله صحيح. أنت ذكيٌّ للغاية. من المؤسف أنك لا تذهب إلى المدرسة. أنت مُحِقٌّ بكل تأكيد. يجب أن تعرف أيّ امرأةٍ تمام المعرفة قبل أن تطمئن وتدير ظهرك لها. ما تقوله صحيح. لن أُناقِشك؛ ففي النهاية لم يَسِر الأمر معك جيدًا حينما دخلتَ في الصباح هذا الحمام الصغير وأدرتَ لي ظهرك مُختالًا بنفسك. خطأ كبير يشبه كثيرًا الخطأ الذي ارتكبه ذلك الرجل منذ نحو قرن.

حسنًا، لا تُلقِ بالًا. يجب أن تتحلى ببعض التفاؤل يا سانتي. أنت ما زلتَ صغيرًا للغاية. ليس مُستحَبًا أن تُؤنِّب نفسك على أخطائك دومًا. لن تخرج بفائدة، لكنَّ ذلك الرجل على النقيض لم يكن صغيرًا بالمرة وارتكب هفوةً كبيرةً حينما أدار ظهره لأمي؛ إذ إن ديليتا كان معها مسدس ساقية في حقيبة يدها. مسدس ساقية صغير.

لا أعرف العيار. وكيف لي أن أعرف؟ لا أعرف شيئًا عن الأسلحة. أنت من تعرف لأنك مجرم. اتركني أُواصِل... حسنًا.

بمجرد أنْ لاحظت ديليتا الرجل يدير ظهره، ألصقَت المسدس في قميصه وأمرتْه بألا يتحرك إن أراد الحفاظ على حياته، وأن ينتبه جيدًا لما ستقوله وكرَّرتْها له: «جيد جدًا.» أدار جسده بالتأكيد من فرط الدهشة، عاجزًا عن فهم ما كانت تفعله تلك المرأة الجميلة. وحينها سألها: ما الذي يحدث؟ لتشرح له ديليتا بكل هدوء ألّا يتقدم ولا خطوة، ولا يقدم على ارتكاب أي حماقة وإلا قتلته، فهي لم تكن تمزح، وكل ما ترغب فيه هو التحليق في ذاك الصباح. شرحت له أنها لا تخشى الرياح أو الأمطار، وقد دفعتْ ما دفعتْه بجسدها من أجل هذه الرحلة، وأنها مقتنعة تمامًا بأنها سدّدتْ

ما عليها بأفضل صورةٍ ممكنة، ولن تسمح أن تُخدع تحت أي ظرفٍ أو وجهة نظر؛ لذا فمن الأفضل له ألا يُفكر في القيام بأي حركةٍ غريبة؛ فلم تكن راغبةً في قتله -على الرغم من استحقاقه لذلك- إلا إذا استدعَت الحاجة. ارتعب الرجل كثيرًا يا سانتي بعد سماعه لخطاب أمي الصُّلب، ارتعب لدرجة أن كل ما فعله هو خفض عينَيه. ولم ينطق بشيء. لم ينبس ببنت شَفةٍ مطلقًا، لكن لا تظن أن هذه الإيماءة انطلتْ على أمي. لم تشعر بالأسف؛ لذا أمرتْه بالسير عدة خطوات أمامها دون أن يلتفت نحو حظيرة الطائرات.

أي العنبر يا فتى. عنبر لتخزين الطائرات.

وصلا بعدها بلحظات ثم أجبرتْه أمي على فتح البوابة الثانية. نفَّذ الرجل الأمر في صمتٍ بأحد المفاتيح التي في جيبه، لكن بمجرد انفتاح ضلفتَي البوابة على مِصراعَيهما رفع عينَيه في عينَي ديليتا وقال لها بصوت خفيض إنه لا يفهم ما يحدث، وإنه كان يعتقد أنهما صديقان ولم يتخيل قطُّ ردَّ فعلٍ مثل هذا منها؛ فالرياح تهبُّ من الجهة الجنوبية الشرقية؛ لذا فالتحليق سيكون خطرًا اليوم ، ثم طلب منها أن تتفهَّم أنه لم يرفض إعارتها الـ«فارمان» قط، وأنه رجل شهم؛ فالطيران في مثل هذه الظروف المناخية شديد الخطورة. لم تَثنِ كلماتُه أمي. أوضحتْ له، وهي تُوجِّه سلاحها بحزمٍ نحو رأسه، أنه كان عليه التفكير بالمسألة مسبقًا، في الليلة السابقة على سبيل المثال؛ فالمناخ لم يتغير فجأة فالرياح كانت تهبُّ من الجهة الجنوبية الشرقية منذ مساء اليوم السابق على الأقل. أَقسم لها الرجل وهو يبكي كطفلٍ رضيعٍ أنه فعل كل ما فعله لأنه لم يتحمَّل كبْت رغبتِه تجاهها، أنه أحبَّها منذ الليلة التي تعرَّف عليها فيها، بل وترجَّاها أن يَفِرَّا معًا في الطائرة نحو أي رُكنٍ في العالم بمجرد تحسُّن المناخ. نهرتْه أمي: «أنت مجنون تمامًا. أنا لا أحبك، وأيضًا لديَّ عائلتي وزوج ودود وطفلة صغيرة هي أكثر ما أحبه في هذا العالم، لن أتركها أبدًا لأهرب مع كائنٍ

مُنفِّر وناكِر للجميل مثلك».

لم أخترع شيئًا. أمي كانت تُحبُّني يا سانتي. كنت أنا شمس أيامها. أُؤكِّد لك هذا.

لا، أنت مخطئ.

أنت أبله. في قمة البلاهة.

* * *

اضطُرِرتُ للرحيل. لو مكثتُ ثانيةً واحدةً إضافية، لكنتُ قتلتُك يا سانتي. صدِّقني، كنتُ سأقتلك على الرغم من تقبُّلي لك نوعًا ما في ظل الأوضاع الحالية.

بالفعل، هذا حقيقي. تصرُّفك كان في قمة البلاهة.

أن تكرهك أمُّك لا يمنحك حقَّ التفكير في أن كل الأمهات مثلها، ولا أيَّ حقٍّ للسخرية مما قالتْه أمي لذلك الرجل في هذا الصباح المنحوس في «لونغتشامبس». أعرف أن فهم المسألة عسير بالنسبة لك. أقصد أنه مع القصة العائلية التي تحملها فوق كاهلك، فقد يبدو لك أنه من المستحيل أن تُحِبَّ الأمهات أبناءهن، لكن هذه هي الحقيقة. هذه المسألة تحدث. توجد أمهات وأمهات أخريات وأمي كانت تُحبُّني؛ ولهذا قالتْ ما قالتْه لهذا الرجل في تلك اللحظة شديدة الخصوصية.

لم أخترع شيئًا.

لديَّ قناعة بأنه في تلك اللحظات الأخيرة من حياة أمي، كانت تتصارع داخلها رغبتُها التي لا تقبل التأجيل في الطيران من ناحيةٍ والخوف المرعب من ضياع حياتها من الجانب الآخر، وهو ما كان سيعني تركي وحيدةً في هذا

العالم. وحيدةً إلى الأبد.

أمُّك لا تُحبُّك يا فتى. لا تَخدع نفسك. جلبتْك لهذا العالم لأنها اضطُرَّت لذلك. كما جاءت بالآخرين. أقصد الإخوة الذين تقول إنهم يعيشون في العشة. جلبتْك دون أن تُدرِك أنها جلبتْك، دون أن تفكر في ما تفعله حينما باعدتْ بين ساقيها، ليس بدافع الحب، بل بمحض الصُّدفة.

اعذرني، ولكنها لو كانت تُحبُّك، لما لتتركك «تتسكع» في الشوارع وتسرق المسنات العاجزات عن حماية أنفسهن.

يُفترَض أن تكون في المدرسة لا محبوسًا في حمَّام كما أنت الآن. كلما أدركتَ سريعًا أن أُمك لا تُحبُّك ولم تُحبَّك قطُّ كان ذلك أفضل. وبالرغم من أن سماع الحقيقة مؤلم؛ فأنتَ ستشكرني بعدها، صدقني، إنني أعي ما أقوله.

لا، لا. أنت مخطئ جدًّا يا سانتي. أُمك وأبوك ليسا سوى متقاعسين. يجب أن يبحثا عن عملٍ ليَحصُلا بشرفٍ على بعض المال ينفقانه على إرسالك إلى المدرسة.

نعم. كانت لديَّ وظيفة سابقًا. بكل تأكيدٍ كنتُ أعمل، على الرغم من عدم حاجتي لذلك. كان عندي ما يكفيني من المال لأعيش بكل رفاهية، لكن المسألة لا تتعلق بالرفاهيات، بل يجب على أي امرأةٍ أن تُساعِد المحتاجين.

كنتُ مُدرِّسةً للمرحلة الابتدائية حتى فصلني البيرونيون، وبعدها لم أتمكَّن من العمل مجددًا.

لماذا؟ فصلوني لأنني كنت أقول الحقيقة في فصولي، الحقيقة بخصوص الغاوتشو على سبيل المثال، أو عن البيرونيين الذين لا يَقلُّون عنهم في كونهم حُثالة. قالوا إنني لم أحترم المناهج التعليمية المفروضة من الوزارة وإنني كنت خطرًا على الطلاب. قالوا عني أكاذيب كثيرة.

قدَّمتُ المساعدة قدر استطاعتي أيضًا في الكنيسة. رافقتُ مرضى وخبزتُ الكعك وغيرها. ساعدت دومًا كلَّ مُحتاج، لكن أعتقد أنك تسعى إلى إبعادي عن موضوع أبوَيك ولن تنجح في هذا؛ فما يجب عليهما فعله ليس التكاسُل طوال اليوم، بل توفير كل ما يحتاجه ولدٌ عُمرُه أربعة عشر عامًا، لكن هذا بلد للكُسالى، هذا بلد يفيض بأشخاص مثلك أو مثل أبوَيك، يُفضِّلون سرقة العجائز في الشوارع على العمل. لا احترام لأي شيءٍ هنا؛ ففي أعماقنا نحن من الغاوتشو... الجميع، كل امرئٍ، يفعل ما يحلو له، ما تُملِيه عليه نزواته ورغباته. لا أحد يفكر في سواه. الحقيقة يا فتى أن حالة البلد كارثة. الكل مثل الغاوتشو: يمتطي كلُّ امرئٍ حِصانَه ويُدثِّر كتفَيه بأي رداء بونتشو في متناوله، وهكذا يذهب هنا وهناك وَفقًا لهواه، ليفعل ما يخطر بباله، لينساق وراء ما تُملِيه عليه رغباته. لا احترام لأي شيءٍ في هذا البلد على الإطلاق.

هذا ليس ذنبك يا فتى. لا تتذمَّر هكذا. ليس هذا ما أقصده. هو ذنب كبار السن. أجدادك وأعمامك وأبوَاك على سبيل المثال.

أنا؟ لا، أنا، لا. وأيُّ ذنبٍ ملعون لي فيما يخصّك؟

نعم، حسنًا. أنا كبيرة في السن، لكني لا أعرفك تقريبًا، بل لو أنك لم تحاول سرقتي هذا الصباح عند العمارة، لما أدركتُ وجودك قط.

هذه هي الحقيقة: لا صلة لي بما يحدث لك. المسألة يا سانتي -وصدّق ما أقول- أن هذا ذنب كوننا بلدًا للغاوتشو حتى يومنا هذا وكما كنا دائمًا.

بمعنى؟

لم تتعرَّف عليهم لأنك لم تُمعِن نظرك؛ فأنت بكل تأكيدٍ تسير مُشتّتًا. لم تُمعِن النظر وتنتبه لما حولك. أُقسِم لك أنهم في كل الأنحاء.

لا أخترع شيئًا. لا تكن فظًّا. لا أقصد حرفيًّا أنهم يسيرون في الشوارع بحبال الـ«بوليادوراس» ومعاطف البونتشو وسراويل البومباتشا وحزام العُملات حول خصورهم. تبدو عاجزًا عن فهمي. ما حدث فقط أنهم غيَّروا مَلبَسَهم. أُحدِّثك عن مسألةٍ أكثر عمقًا، عن طبيعة إنسانية مُعدية تنتقل من جيلٍ إلى آخر. أظن أن هذا يحدث عبْر أوعية شراب الماتي؛ فبين رشفةٍ وأخرى ينتقل المرض؛ لهذا أكره الماتي وعُشبَتَه. أعتقد أنهما المذنبان في كل مساوئ الوطن ومساوئنا.

لا تتحامق. لستَ غبيًّا على الإطلاق يا سانتي. هو نفس الشيء. قلت لك هذا للتو: الغاوتشو والأجداد والآباء والماتي وعُشبته والأعمام.

بالفعل. أكره الماتي؛ ولهذا أشرب الشاي. الشاي ليس مُعديًا، فكل امرئٍ يشرب من فنجانه بلا أي ضررٍ ولا يصيب غيره بعدوى العادات الرهيبة، لكنَّ أوعية الماتي تنتقل من يدٍ إلى أُخرى لفترةٍ طويلةٍ ومعها العُشبة. الماتي مجرد قُمامة. هل تُحبُّه؟

أرأيت؟ كما قلت. إذا كانوا في منزلك يشربون الماتي، فقد أُصيبوا جميعًا بالعدوى. كلهم باتوا من الغاوتشو، وهذا هو سبب خروجك إلى الشارع لفعل ما تفعله. هل أنت أيضًا بيروني الهوى؟

لحُسنِ الحظ! لكن أنت غاوتشو وأُصِبتَ بالفعل بالعدوى، على الرغم من أنك لم تَرَ بقرةً واحدةً في حياتك، واعذرني على قول هذا.

من فضلك يا سانتي، توقف عن التفوُّه بحماقات.

عِدْني بأنك حينما تخرج من هذا الحمام ستبدأ في الذهاب إلى المدرسة؛ فمن غير الممكن ألا تعرف شيئًا عن الغاوتشو.

حسنًا. سأشرح لك حتى ولو كانت هذه -لكي تبقى الأمور في نِصابها-

هي وظيفة المُدرِّسات وليست وظيفتي.

كان الغاوتشو سكانَ السهوبِ الأصليين، خليطًا متفجرًا من الأصول الإسبانية والهندية، رجالًا ليس لديهم سوى القليل: حصان وسرج من جلد الماعز وطقم ملابس واحد متسخ وسكين كبير اسمه «فاكون». لا أكثر ولا أقل. أتاحت لهم حياتهم التجوال حيث يخطر ببالهم. كانوا مثل أبويك، لا يعملون تقريبًا. لم يعملوا إلا حين يفلسون، وفقط لشُرب الكحول أو لعب الورق. إذا جاعوا، ذبحوا أول بقرة في طريقهم دون أن يهتمُّوا بهُوية صاحبها. يأكلون القليل منها ثم يتركون البقية على قارعة الطريق لتتعفَّن أو لتُسمِن أفراخ العُقاب. إذا عطشوا، شربوا من أي بِركة. إذا رغبوا في امرأةٍ ما، اختطفوا لهم هندية. إذا غضبوا من أحدهم، قتلوه. هكذا كانت حياة الغاوتشو. جعلهم هذا يشعرون بالحُرية على ما يبدو. لم يهمُّهم شيءٌ سوى حُريتهم. لم تَقبل هذه الحرية بكل تأكيدٍ أيَّ قواعد أو قوانين. كانوا أوفياء لأنفسهم ولقوانينهم التي فصلُّوها وَفقًا لأذواقهم فقط. حياتهم كانت محضَ هُراء. هذا النوع من الغاوتشو البدائي الثرثار والمتباهي هو الذي انقرض. بات مَلبس الناس اليوم مختلفًا ولم يعودوا يتجولون في الشوارع ممتطين الأحصنة، لكن لا أعتقد أن أفكارهم وطريقتهم في مواجهة العالم قد اندثرت وكذلك أسلوبهم في معاداة المجتمع، وبالمثل أيضًا ثرثرتهم وتباهيهم. لا تقتصر المسألة فقط على عدم اندثارهم، بل المشكلة أنهم أصابوا كلَّ مَن يعيشون في هذا المكان من العالم بالعدوى، والسبب في هذه العدوى هو شراب الماتي، كما سبق أن أخبرتك.

لا، لست مجنونة. لن أسمح لك.

شرحت لك ما طلبتَ مني. إذا كنت لا ترغب في فهم الوضع أو الاعتراف به فهي مشكلتك وليست مشكلتي، ويا لحَظِّك العَثِر حينها!

كفى! لقد أنهكتني؟

نعم! لقد أنهكتني.

لا تتحامق. لستَ أحمق. لن أخرجك من هنا لأنني أُنهِكتُ أو لأنك وصفتَني بالمجنونة. لا تكن بمثل هذا الوهن يا فتى. مازال هناك الكثير لأحكيَه لك عن قصة أمي. إن شئت، فلْتستغِلَّ وقتَك وتتمعَّن فيما شرحتُه لك عن الغاوتشو، بينما أذهب لتناوُل فنجانٍ من الشاي وأستريح.

نعم، فنجان من الشاي، هكذا حافظتُ على صحتي طوال حياتي.

* * *

لِنعُدْ إلى موضوع أمي. أتمنى ألا أنزلق مجددًا على الرغم مِنِّي بعيدًا عن الموضوع، وألا تدفعني إلى حيث يخطر ببالك.

أنت حيوان! كيف تُفكر في أكل الصابون يا سانتي. ستُصابُ بسوءٍ هكذا، وهذا خطرٌ على معدتك. لا تكن غبيًّا.

تَحمَّل ما أنت فيه. هل تعرف كمَّ اضطُرِرتُ للتحمُّل في سنواتي الثلاث والتسعين؟

لن يقتلك أن تجوع قليلًا ، بل على النقيض يا فتى؛ فالصعوبات تقوّي شخصيتنا، تنضجنا، تجعلنا أكثر واكتمالًا.

لا، أنت مخطئ. لقد عانيت أيضًا من الجوع حين كنت صغيرة. حتى عُمر الحادية والعشرين عانيت من الجوع؛ فبمجرد ألا يُعجِب أمرٌ ما خالتي ألثيرا كانت تُرسِلني إلى الفراش بلا طعام، سواءٌ كان درجةً سيئةً في المدرسة، أو صوتًا مرتفعًا، أو إن قرأتُ كثيرًا، أو لم أقرأ. كانت تَجِدُ في أي شيءٍ مبرِّرًا لتتركني بلا طعام. قضيتُ ليالِيَ كثيرةً ورأسي مشغول بأنَّها

تفكّر في قتلي بسلاح الجوع لتَحصُد الثروة التي تركها لي أبواي. لكني تحلَّيتُ بالقوة ونجوت. انتهزت كل فرصةٍ أكون فيها وحيدة لأخْذ قطع من الرقائق التي كانت خالتي تحتفظ بها في وعاءٍ ضخمٍ فوق مائدة المطبخ، وبعدها كنت أُخبِّئها أسفل حشوة الفراش أو بين ملابسي. نجوتُ يا فتى. بِتُّ قويةً وصقلت شخصيتي. تَحمَّل الجوع وستخرج من هنا رجلًا. أعرف ما أقوله، ومتيقنة منه!

حسنًا... طرأتْ لي فكرة للتو. انتظر، سأُجرِّب شيئًا ما؛ فالحقيقة أن أمرك يُحزنُني قليلًا.

لقد عُدت. لا أَقدر على الانحناء؛ فكما تعرف، أُعاني من وضعٍ بائسٍ في العمود الفقري والوَرِك، لكن سنحاول على أي حال: سأُلقِي قطعة من الرقائق على الأرضية. الفكرة طرأتِ لي حينما قصصتُ عليك مسألة الخالة ألثيرا، انظر يا فتى غرابة طبع الإنسان؛ فبمجرد رحيلي عن منزلها وتملّك بيتي الخاص؛ كان أول ما اقتنيتُه وعاءً زجاجيًّا كبيرًا لأملأه بالرقائق. ما زال موجودًا لديَّ حتى الآن. أُحدِّثك عن نفس الوعاء بعد مرور اثنين وسبعين عامًا، وهو دائمًا مملوء حتى رأسه... حسنًا، ما كنتُ أقوله هو أنني سأُلقِي بقطعةٍ من الرقائق على الأرضية، وبعدما تسقط سأدفعها برفق، وإذا ما سمح عقب الباب فستجدها عندك في الناحية الأخرى لتأكلها.

شكرًا! أحب أن تدعُوَني ليتا. هيا بنا.

هيا، هيا. يبدو أننا وجدنا حلًا لئلا تستمرَّ في تناوُل الصابون.

حسنًا، بالفعل؛ تكسرت قطعة الرقائق، وما المشكلة؟ قلت لك إنني أعجز عن الانحناء. إن لم تنفعك، فلا مشكلة، لن أُلقِيَ لك بالمزيد، ولْتأكلْ ما قد تجده في الداخل. ما زال أمامك المناشف والورق الصحي والإسفنجة.

هكذا تُعجِبني. سأُمرِّر لك قطعةً أخرى. ها هي قادمة.

لا داعيَ للشكر يا سانتي. أنت تستحقُّها، لكن لا تظن أنني سأقضي طوال اليوم أُمرِّر لك الرقائق من أسفل الباب. لا تحلم. لقد أكلتَ قطعتين. لا تكن مفجوعًا. ما أكلتَه يكفيك لتنجو. أنا أعرف ما أقوله. كُن مؤدبًا الآن من فضلك واتركني أُواصِل حكاية أمي.

بكل تأكيد. إذا تصرّفت بتهذيب، فسأعطيك المزيد. لا تقلق.

كنا قد توقَّفنا عند العنبر وأمي تُصوِّب مسدسًا إلى رأس الرجل الذي كان يرجو العفو وسط بحرٍ من الدموع، لكن ديليتا لم تظهر له أي شفقة، ولماذا كانت ستفعل إن كان لم يَقُم بالمثل في غرفة الفندق؟ كانت أمي من نساء «الكلمة الواحدة»: أبرما اتفاقًا وأوفت بما عليها، وعليه هو أن يَفِيَ هو بما عليه. حينئذٍ أمرتْه بأن يُجفِّف دموعه ويَدفع الطائرة نحو ممرِّ الإقلاع، وحذَّرتْه أكثر من مرةٍ من مَغبَّةِ القيام بأي تصرُّف غريب، وألا يخطر هذا بباله، وأنها ستظل طوال الوقت تُصوِّب المسدس نحو رأسه؛ فهي لن تتردَّد في الضغط على الزناد إذا استدعَت الحاجة. أخرج ذلك الرجل منديلًا من الجيب الخلفي لسرواله وجفَّف دموعه وتمخَّط مرتَين ثم شمَّر عن ساعدَيه وتموضع خلف الطائرة. عاود من هناك الكَرَّة لمحاولة إقناع أمي بأنه من الأفضل الانتظار حتى صباحٍ آخر مناسب أكثر للتحليق، لكن ديليتا صرختْ فيه: كفى. وأنها ضاقت من كل حركات المُخنَّثين هذه؛ لذا عليه أن يبدأ دفع الطائرة نحو ممرِّ الإقلاع بالفعل.

أنتَ تُدهِشني بالفعل يا فتى.

يبدو أنك لا تفقه شيئًا في النهاية. هل تظن أن المُخنَّثين من ضمن اختراعات زمننا هذا؟ لا يا عزيزي. المُخنَّثون كانوا موجودين دائمًا، وسيظلون دومًا موجودين، قرنًا تلو الآخر.

بكل تأكيدٍ يا بُني. انظر إلى الغاوتشو إذا أردت أن تعرف. رجل الغاوتشو عاش وحيدًا طيلة حياته، هناك فوق حصانه. أكُنتَ تظنُّ أنهم لم يكونوا يخرجون من الحانات وكلٌّ منهم يُعانِق الآخر؟ حسنًا... كانوا جميعًا مُخنَّثين؛ ولهذا وصلنا إلى الحالة التي نحن عليها الآن. لم يكن هناك نساء في خلاء السهوب. الغاوتشو فقط، وكلهم ذكور، بلا أي امرأة على مرمى البصر. كان الخلاء هو ما يحيط بهم من كل جانبٍ. أنا واثقة من أنهم كانوا يَتمَلون وينامون معًا، واثقة كما لو كنتُ رأيتُهم بأم عيني.

حسنًا، اعذرني. لن أتحدث مجددًا عن الغاوتشو. أعرف أن الموضوع لا يهمُّك، وإن كنتُ أعتقد أنه يجب أن يهمَّك.

طيب، طيب، لكن اسمعني، أنت أيضًا مُذنِب في مسألة خروجي عن القصة. سأُواصِل.

بدأ الرجل يدفع الطائرة ببطء. كان العُشب رطبًا من النَّدى الذي سقط طيلة الليلة. تابعتْه ديليتا من الخلف على بُعد ثلاث خطوات أو أربع. لم تكن لِتقتربَ أكثرَ؛ فلو تقدمت لأصبحت عرضة لأي استدارة مُفاجِئة من الرجل ليَخطفَ السلاح أو يَصفعَها، أو أي أمر قبيح آخر لا يعلمه إلا الربُّ وحدَه؛ ولهذا قرَّرَت أن تُتابعه على بُعد ثلاث خطواتٍ أو أربع؛ المسافة المثالية لمنع أي هُجومٍ مفاجئ، ولضمان دقة التصويب إذا ما خطر ببال الرجل ارتكاب فعلٍ مجنون. كانت أمي امرأةً مُتحوِّطة. إذا سمحتَ لي سانتي، فدعني أقُلْ إني أخذتُ هذه الخصلة منها.

بكل تأكيدٍ كان قادرًا على هذا يا فتى. لم تكن هذه الطائرات ثقيلةً بالمرة، بل صغيرة وخفيفة جدًّا. كانوا يصنعونها هكذا ليتمكَّنوا مِن جعْلها تُحلِّق.

لا أخترع شيئًا على الإطلاق. أُؤكِّد لك أنها كانت خفيفة لدرجة أن

رجلًا بمفرده كان قادرًا على دفعها بسهولة... ومتى ستتركني أُواصِل قصَّ الحكاية؟ لأنك تشكو وتشكو من أنني أَحيدُ عن الموضوع يا عزيزي، لكنك أيضًا لك بعض التصرفات: تُقاطِعني بين الفَيْنة والأخرى، وبسبب حماقات. إنك حتى لا تذهب إلى المدرسة؛ وعلى الرغم من هذا ها أنت تُناقشني كأنك عليم ببواطن الأمور، وبالوزن المحتمل لهذه الطائرات التي وُجدَت منذ نحو قرن.

حسنًا.

كان الصبح قد انبلج وباتت الرؤية أوضح، وهدَّأ هذا من رَوع أمي، لكنها ظلتْ مُتأهِّبة خشية أن يباغتها الرجل. اضطُرَّا إلى السَيرِ حتى عشرين أو ثلاثين مترًا في خطٍّ مستقيمٍ من العنبر نحو المَدرَج. فلأخبرك سريعًا، إن كنتَ تتساءل، أن ممرَّ الإقلاع لم يكن أسمنتيًّا أو مُعبَّدًا.

لا، بل كان من النجيل كبقية المكان. كان به بعض العلامات فقط على جانبيه، علامات مُلوَّنة. ليُرى من الجو.

بالفعل. هذا هو ما اقتصر عليه الأمر.

لا تضحك. لا أفهم لماذا تضحك. هكذا كانت ممراتُ الإقلاع حينئذٍ.

لا تتحامق يا سانتي. إذا واصلتَ الضحك فستَمكُث وحيدًا ومحرومًا من الرقائق لفترةٍ طويلة.

كفى!

كما قلت؛ ستَمكُث وحيدًا وبلا رقائق أيضًا.

* * *

لَمْ تُنادِني باسم «ليتا» منذ فترة. أُحبُّ أن تدعُوَني بهذا الاسم. أمرٌ غريب. هكذا أشعر أنني شخص آخر؛ ولهذا عُدْت.

وها هي قطعة من الرقائق.

نعم. أظنني سامحتُك على ضحكتِكَ البلهاء فقط لأنك دعوتَني ليتا. الاستماعُ لك وأنت تنطقه ومسامحتُك كان أمرًا جميلًا.

لا أفهمك يا فتى.

أنا؟ حياتي؟ خُذ. من الأفضل أن تلحق بقطعةٍ أخرى من الرقائق.

من فضلك، توقَّف عن التفوُّه بحماقات. ماذا تريد أن أحكي لك عن حياتي؟ هي لا تستحقُّ العناء. أُؤكِّد لك أنها لا تستحقُّ العناء. كُلْ واتركني في سلام.

رجال؟ نعم! بكل تأكيد.

هل أنت مهتمٌّ بهذا حقًّا؟

حسنًا يا سانتي. طيب، ما دُمتَ متهمًّا بهذا الموضوع فسأحكي لك. كان عُمري ستة عشر عامًا أو سبعة عشر عامًا. كان الرجل الأول في حياتي صديقًا لعَمِّي، أعني لزوج الخالة ألثيرا. كان أكبر مني وأُعجِبتُ به كثيرًا. اعتاد زيارة المنزل بين الحين والآخر، وبدا كأنه الكائنُ الوحيد في الكون المهتمُّ بي نوعًا ما. يجلب لي الهدايا ويخبرني أنني كل يوم أُصبِح أجمل وأحلى وهذه الأمور. ظل الأمر هكذا طيلة شهور أو ربما سنوات، حتى وصل ذات يوم مُبكِّرًا عن عادته. لم يكن في المنزل غيري أنا والخادمة. طلب مني مرافقته إلى الحديقة. وبأنه يريد أن يُرِيَني شيئًا ما أو يُعطيَني إياه. لا أعرف. لا أتذكر جيدًا. ذهبتُ معه بكل تأكيدٍ كحمقاء، ويمكنك أن تتخيل ما الذي جرى بعدها.

سأخجل بعضَ الشيء من حكايةِ بقية ما حدث. من الأفضل أن أُمرِّر لك قطعةً أخرى من الرقائق... ها هي!

حدث ما حدث يا فتى. لماذا الإصرار على أن أُخبرك إذا كنتَ تعرف ما حدث بالفعل؟!

لا أعرف.

حسنًا، بما أنك مُصِر؛ ما حدث هو أنه دفعني داخل مُستودعٍ صغيرٍ في نهاية الحديقة. كتَم فمي بمنديلٍ ودفعَني لإمساك تلك القُمامة المتدلية من بين ساقيه، وبعدها مزَّق لباسي الداخلي بحركةٍ واحدة، والبقية يمكنك أن تتخيَّلها.

كان أمرًا مُرعبًا.

وفوق كلِّ هذا، هدَّدني المُنحطّ أنني لو تجرَّأت وقصصتُ ولو كلمةً واحدةً مما جرى على خالتي وزوجها أو ابنتَيهما، فإنه سيُقدِّم لهم تفسيرًا مُغايرًا تمامًا للموضوع، أي أنني في الواقع من أَغويتُه وأجبرتُه حرفيًّا على الذهاب إلى المستودع. أكَّد لي أيضًا أنهم سيُصدِّقونه ويُكذِّبونني، وأن أحدًا لن يهتمّ ولو بأقل قدر بما يحدث لي، بينما هو على النقيض كان يهمُّ الجميع كثيرًا بسبب الأعمال الجمَّة التي جمعتْه بزوج خالتي.

كان أمرًا فظيعًا بالفعل.

كان هناك آخَر بكلِّ تأكيد، لكنه مجرد رجلٍ آخر. لا تظن أنهم كانوا كثرة.

اثنان. اثنان فقط.

تكرَّرتْ مسألة الرجل الأول، صديق زوج ألثيرا، عدة مرات، وكانت

دائمًا في المُستودَع في نهاية الحديقة. كان يأتي حينما يخلو المنزل، ولا أدري كيف يتحقق من المسألة. يشير لي لأتوجَّه إلى الحديقة. فأذهبُ في صمت. لا أكثر ولا أقل. أرعبتْني فكرة أن يَحكي شيئًا ما لخالتي، فيتمكنوا من سرقة حقِّي؛ الثروة التي تركها لي أبواي. كنتُ أتوجَّه إليه، لكن بعينَين دامعتَين. لم أكن أتجرَّأ على معارضته. كنتُ مرعوبةً منه. كان أمرًا مُنفرًا يا فتى. تخطيتُه بصعوبة، وهذه هي الحقيقة بكل صراحة، لدرجة أن إقدامي على حكاية المسألة لك الآن دون أن أرحلَ لأبكيَ كحمقاء أمرٌ عسيرٌ للغاية. ماتزال كلمات الوغد المُنفِّر مَحفورةً في عقلي، تلك الكلمات التي كان يهمس بها في أذني كلما فعلها: أنتِ ساقطة صغيرة مثل أمك. يا له من حُثالة. أوسخ من الوساخة! أعتقد أن هذه كانت اللحظة الوحيدة في حياتي التي فضّلت فيها الموت، لدرجة أنني توقَّفتُ عن جلب الرقائق لغُرفتي.

بالفعل. معك حقك. تؤلمني هذه الذكرى حتى النُّخاع. من الأفضل أن أحكِيَ لك قصة الرجل الآخر.

نعم.

وصل الرجل الثاني والأخير في حياتي بعدها بفترةٍ طويلة، حينما كنت أعيش وحيدةً منذ زمن. كان عمري حينها اثنين وعشرين أو ثلاثة وعشرين عامًا. لا، لا، اثنين وعشرين عامًا تحديدًا، بل إنني أتذكر أن المسألة تزامنتْ بالضبط مع بداية الحرب بين فرانكو والشيوعيين في إسبانيا. كان عمري اثنين وعشرين عامًا، أما هو فكان أكبر؛ كان عمره أربعين عامًا إن لم تَخُنِّي الذاكرة. كنت أعيش حينها في منزل أبوَيَّ في بلغرانو. تعرفتُ عليه لدى خروجه من عِظة يوم الأحد. كان أسمر نوعًا ما وسمينًا بعضَ الشيء. اقتربَ مِني أثناء عُبوري الميدان وسألني إذا كنتُ أُمانِع أن يسيرَ معي بضعة مربعات سكنية. أعجبتْني عيناه. كان بهما دفء. أجبتُ بالقَبول وقلت له إنني ذاهبة

نحو الناحية الأخرى من منطقة الهاويات. امتدتْ صُحبتُه إلى ما هو أكثر من مُربعَين سكنيَّين، وتحديدًا حتى باب منزلي. أعجبني. ظهر بعدها يوم الأحد التالي أيضًا وهو ينتظرني في الميدان. وسمحتُ له بمرافقتي مرةً أخرى بكل تأكيد، وهكذا بدأَت المسألة يا سانتي.

ربما لا تبدو لك البداية أمرًا مهمًّا، لكن بالنسبة لي فكيف بدأَت الأمور بيننا له أهميته.

بالفعل، بالنسبة لي كانت هذه العلاقة هي الوحيدة في حياتي التي بدأَت بطريقةٍ صحيحةٍ نوعًا ما؛ ولهذا أقصُّها عليك من بدايتها.

ربما لا تعني فحوى المسألة لك شيئًا لأن علاقاتك طبيعية، أما علاقاتي فلم تكن على هذه الشاكلة قط. ركِّز إن لم تكن فعلت في علاقتنا معًا. صحيح أننا الآن صديقان ونحكي كل شيء، لكن كيف كانت البداية؟ عند باب العمارة وخزْتَني بسكينٍ أو ظُفر سبَّابتك، وفوق كل هذا حاولت سرقة المال الذي أحتفظ به في شقتي.

حسنًا... إذا كان هذا هو فقط ما يهمُّك فسوف أقصُّ عليك كيف انتهت علاقتي بهذا الرجل الثاني، وإن كنتُ أُصرُّ على أن البداية كانت ربما أفضل ما حدث في حياتي.

لا أفهم السبب وراء اهتمامك بالموضوع.

انتهت المسألة بصورةٍ سيئة. هذا أمر مُؤكَّد. بصورةٍ سيئةٍ للغاية.

كان لذيذًا وحنونًا ويجيد فنون الغَزَل. اعتاد مرافقتي لشُرب الشاي أو تناوُل الطعام في أماكنَ لطيفةٍ للغاية. حكى لي عن رحلاته والعادات المختلفة للأماكن الكثيرة التي زارها، وكنتُ أُنصِت إليه مَسحُورة.

لا، لم أكن مُستثارة، بل مَسحُورة، مسلوبة الإرادة. كأنني عالقة داخل

سحابة من القُطن. انبهرتُ بقضاء الوقت معه، ولأول مرةٍ كان الوقت ينسابُ من بين أصابعي، لم يكن يتباطأ أو يبدو أنه لا نهاية له. أقصد أنه لم يكن له ثقله.

وسأقولها لك مجددًا. ربما تفكر في أن كل الناس مثلك أو مثل مَن يعيشون حولك، لكن لا يا عزيزي؛ العالم أكبر بكثيرٍ من عشَّتِك الخشبية.

لأن هذا هو ما حدث. انتهت المسألة لأنها كان يجب أن تنتهي، لأن كل الأمور تنتهي، بل إن كل الأمور الرائعة على وجه الخصوص يجب أن تنتهيَ سريعًا. صدِّقني يا سانتي، هكذا تسير الحياة... طلبَ مني الزواج.

أي نعم! بكل تأكيد. وافقت. تخيل! رسمتُ خيالاتٍ كثيرة: العيش مع شخصٍ بمثل هذا اللُّطف، رجل شديد الطِّيبة وكان يُعامِلني فوق كل هذا كَمَلِكة، كما لم يسبق لأحد أن عاملني من قبل.

لا أعرف. لم أتزوج.

لم أتزوج لأن جرس منزلي رنّ ذات صباح، وهو أمر غريب، لم يسبق له أن رن. لم أستقبل أيَّ زياراتٍ تقريبًا. مَن رنَّت جرس بابي كانت واحدةً من بنات خالاتي، أصغرهن. إلبيريتا. ويا لي من مغرورة! تصوَّرتُ أنها ندمَتْ على سوء معاملتها لي طيلة سنواتٍ، وجاءت لتعتذر ولنبدأ صداقة بلا أحقاد. تركتُها تدخل وقدَّمتُ لها فنجانًا من الشاي الإنجليزي الفاخر، أفضل ما كان لديَّ حينها، بل إنني قدَّمتُ لها بسكويتًا لذيذًا بالزبد كنت قد اشتريتُه لنفسي في ذلك المساء. اسمع لما أقوله لك: كانوا يصنعونه في مخبزٍ على بُعد عدة مربعاتٍ سكنية من منزلي. البسكويت كان دائمًا نقطة ضعفي يا فتى، بل الآن وعمري ثلاثة وتسعون عامًا ما زلت قادرةً على السَّير إلى أي مكانٍ للحصول على بسكويت جيد.

لا، لم أضايفها بالماتي. ولا تتحامق أكثر من هذا يا سانتي، وإلا فلن أُواصِل الحكاية، وستخسر كذلك البسكويت الذي كنت أفكر الآن في أن لدي بعض القطع النحيفة منه، والتي يمكن أن تمر من تحت عقب الباب. إذا عدت للمزاح، فستَخسرها.

اصبر قليلًا. لا تكن لجوجًا. سأُنهي الحكاية وأُجرِّب.

لم تكن إلبيريتا نادمةً على أي شيء، ولم ترغب في بدء صداقة معي، لكنها تناولَت الشاي وأكلَت ثلاث قِطَع بسكويت على الأقل وكان لديها هدفٌ آخر؛ فقد جاءت حسب ما قالت لإنقاذ حياتي. قالت إنها تأسف كثيرًا، لكن واجبها كابنة خالتي هو إطلاعي على هوية هذا الرجل الذي كان يسعى للزواج مني الحقيقية. ومع أن الشاي لذيذ وكذلك قطع البسكويت، تبين أن هذا الرجل ليس سوى نصابٍ شهير.

مُحتال. مُخادِع. مُستغِل.

صحيح. يلعب بالبيضة والحجر.

وحينها قرَّرتُ التيقُّن من الأمر لإزالة الشكوك؛ ففي أعماقي وعلى الرغم من أن ابنة خالتي قصتْ لي حكاياتٍ عديدةً فظيعة بالأسماء والألقاب، لم أُصدِّق ما قالتْه. لم أُصدِّق المسألة في أعماقي؛ ولهذا قرَّرتُ التحقُّق بنفسي ودعوتُه في نفس المساء لتناوُل الشاي في منزلي. جاء، ودودًا كما جرَت العادة وسارعتُ بإخباره أنني أُفكِّر بتمعُّنٍ في مسألة الزواج، وأننا يجب أن نتحين اللحظة المناسبة، ربما بعد عامين، لنتعارف بصورة أفضل، وأن الزواج قرار مرتبط بحياةٍ كاملة، وأنني أخشى ارتكاب خطأ، فلم أَعرفْه إلا مُنذُ فترةٍ قصيرة وطلبت منه أن يتفهَّم. عامان فقط لأتأكَّد وبعدها نتزوَّج حتى آخر العمر. تركني أتحدَّث، كان يسمعُني في سكونٍ تام، كفارسٍ حقيقي، وبينما

كنتُ أراه حنونًا ومهذبًا للغاية وأنا أُبرِّر مَطلبي، اقتنعتُ بصورةٍ أكبر بأن قصص ابنة خالتي لا يمكن أن تكون حقيقية، وأن ما فعلتْه مجرد نوعٍ آخر من شُرورها؛ فهذا الرجل رائع وإلبيريتا فعلتْ ما فعلتْه بدافع الحسد، لتُبعِدَني عن أرقّ رجال الأرض.

كيف انتهت الحكاية؟ حسنًا... انتهت فجأة. أكَّد لي بكل جِدِّيةٍ أنه يَقبلُ مخاوفي ويتفهَّم تمامًا قلقي، وأنه لا وجود لأي مشكلة؛ فقد كان مستعدًّا لانتظاري كلَّ الوقت اللازم، وأن المهم هو تيقُّني من الخطوة التي سأُقدِم عليها. رسم ابتسامةً خبيثةً على وجهه وظلتْ رغبتُه قائمةً في تناول الشاي مع البسكويت الذي كنتُ سأُقدِّمه له. تورَّد وجهي يا سانتي، في الحقيقة كان السبب وراء هذا التورُّد والخجل هو شُعوري بأنني امرأةٌ كارثية؛ فكيف خطر ببالي الشك برجلٍ شديد اللُّطف والدفء والدماثة مثل هذا؟ كيف توتَّرتُ بهذه الصورة ولم أُقدِّم له الشاي الذي دعوتُه لتَناوُله؟ ركضتُ فورًا لإعداد الشاي. بكيتُ كثيرًا. كان شُعوري سيئًا للغاية حيالَ ما فعلتُه، بل تعهدتُ بأنني سأُلقِي بنفسي بين ذراعَيه لدى عودتي إلى الصالون لأطلبَ غُفرانه مليون مرة، لأرجُوَه وأستسمحَه أن ينسى كلَّ ما قلتُه لنتزوَّج في أقرب وقت، بل وفي ذلك المساء نفسه إن كان ممكنًا.

ها أنا أُواصِل. لا تكن مُتسرعًا.

حتى ولو كنتُ أُكرِّر ما أقوله، لكن فلأخبرك مرةً أخرى قبل أن أحكِيَ لك النهاية: يجب ألا تترك ظَهرك مكشوفًا لأحد.

أبدًا يا عزيزي. أبدًا.

صحيح. هذا حقيقي.

تَعلَّم يا فتى! ما الذي تنتظر مني أن أقوله؟ أنت أفرطتَ في ثقتك بنفسك

ولم تَضعْني في الاعتبار، وظننتَ أنني عجوز لدرجةٍ لا تسمح لي بالدفاع عن نفسي أو بحبسك في الحمام بمثل هذه السرعة.

وصحيح. هكذا تجري الأمور حينما يُفرِط أحدهم في الثقة ويترك ظَهره مكشوفًا. حدث هذا لذلك الرجل مع أمي عند بوابة المطار، ولي في ذلك المساء، ولك أيضًا صباح اليوم.

لا، لا أسخر منك. أقول لك أن تتعلَّم، لا أكثر ولا أقل. فلْتهدأْ من فضلك.

هكذا أفضل. أوشكتُ على الانتهاء.

بينما لم أتوقَّف عن البكاء في المطبخ وأتعهَّد أمام نفسي بتقديم اعتذارٍ تلو الآخر، سرق الصندوق الذي كنتُ أحتفظ فيه بكل مُجوهَراتي.

مجوهرات كثيرة يا فتى. مجوهراتي أنا ومجوهرات أمي وبعض مجوهرات جدتي من ناحية الأب.

المُنحطُّ سرق كل شيءٍ وهرب. حينما عُدت إلى الصالون مُستعِدةً لأي شيء، لم يكن موجودًا، ولشدّة تسرعه ترك الباب الأمامي مفتوحًا ولم أره من جديد، بل لم أعرف عنه شيئًا بعدها أبدًا.

لا شيء على الإطلاق. لقد تبخَّر.

الآن سأبحث لك عن قِطَع البسكويت وسأعود على الفور. لم أُحِبَّ قطّ أن يراني أحد وأنا أبكي. من المُحزِن أن تُصيبَ غيرَك بالأسى.

* * *

سأحاول أن أُمرِّر لك واحدة.

لقد دخلتْ بالفعل ولم تنكسر تقريبًا. سترى مدى حلاوة البسكويت الذي يصنعونه في ذلك المخبز الموجود هنا عند الناصية.

أرأيت؟ كما قلتُ لك. سأُمرِّر لك واحدةً أخرى.

لا تنكسر. إنها أعجوبة! أعتقد أنني عثرتُ على طريقةٍ حسنةٍ لأُغذِّيَك بصورةٍ مناسبة، أو على الأقل لكيلا تُعانيَ مِن كلِّ هذا الجوع.

بالفعل. لقد بكيت.

لا أعرف ما الذي يحدثُ لي معك يا سانتي. أحكي لك كلَّ ما لم أتجرأ على حكايته لأحد. أُقسِم لك: كنتُ أظن دومًا أنه ليس من المُستحَبِّ أن أقصَّ على شخصٍ آخر شيئًا يهمُّني أنا وحدي، وفوق هذا، كلها أمور حزينة وشديدة القُبح. سبق أن أخبرتُك أنني لا أُحبُّ أن أترك إحساسًا بالأسى، لكنَّ المسألة معك مختلفة. إذا أمعنتَ النظر، فإن عدم رؤيتي لوجهك وأنا أحكي لك يجعل المسألة تبدو كاعتراف، وأظن بكل صدقٍ أن هذا يُساعدني.

في الكنيسة. الاعتراف لقِس.

آه يا بُني! ألم تذهب للاعتراف قط؟

يا مصيبتي! أنت بكل تأكيدٍ لست مُعمّدًا.

يكون الكاهن محبوسًا في غُرفةٍ خشبيةٍ ما داخل الكنيسة، ويركع المرء عند أحد الجوانب ويُعدِّد له الخطايا التي ارتكبها، وعبْر نافذةٍ صغيرةٍ مُزوَّدة بسلكٍ معدنيٍّ يُخبِره بكمٍّ من صلوات «أبانا الذي في السموات» أو «السلام عليكِ يا مريم» التي يجب أن يتلوَها للتوبة.

فعلًا؟ هذا هو ما تخيلتُه.

آه، بالفعل، هذه المعابد، لكن كل هذه ليست سوى ديانات زائفة

لإخراج المال من جيوب الناس فقط لا غير.

الربُّ واحد فقط ومكانه في الكنائس.

لا يا سانتي. هؤلاء هم القساوسة. ليس لديك أيُّ فكرةٍ عن أيّ شيء. القساوسة مثل رُسُل الرب، لكنّهم ليسوا الرب. منذ فترةٍ من الزمن أعطاهم الربُّ مجموعةً من الألواح، ووَفقًا لهذه الألواح، يُحدّدون كم صلاة يجب أن يَتلوَها المرء ليُسدِّد ثَمنَ خطاياه.

لنترك المسألةَ يا فتى. يبدو الأمرُ كصنع سلطةٍ سيئة الطعم.

ها هي قطعةٌ أخرى من البسكويت. هل أحببتَه؟

أنا سعيدة.

كنتُ أُخبِرك قبل شرح مسألة الاعتراف، أنه معك يحدث لي شيءٌ لم يسبق أن مررتُ به؛ أنني أتجرَّأ وأقصُّ عليك خصوصياتٍ لم أَحكِها لأحدٍ من قبل. هذا أمرٌ لا يُصدَّق. أنا بالكاد أعرفك يا سانتي وبِتَّ تعرف كل شيءٍ عني. لا يمكنني التوقُّف. أشعر أنني بِتُّ مسموعةً ولِيَ اعتبار.

شكرًا جزيلًا. يُعجبُني حينما تدعوني «ليتا».

لا، لا أعرف. ربما يكون سبب فتح قلبي لك بهذه الصورة؛ فقط لأنك محبوس. لا يُمكنك الركض أو الفرار لتتركني وحيدة، وأنك تحتاجني لأُمرِّر لك قِطَع البسكويت.

أنت تعرفُ عني أكثر مما عرفه أيُّ شخصٍ عرفتُه طيلة ثلاثةٍ وتسعين عامًا هي كل حياتي، كأنك صديقي، صديقي الوحيد.

أي نعم. أفضل أصدقائي أيضًا.

لا، لا أُصدِّقك. لديك عائلة والكثير من الأصدقاء يدعونك سانتي.

لا يروق لي أن تكذِب عليَّ. لا يروق لي على الإطلاق. إذا كنت تظن أنني سأُصدِّق هذا وأتركك تخرج، فأنت مخطئ، مخطئ بصورةٍ متوحشة.

هاجمتَني صباح اليوم، وحتى أنتهيَ من قصِّ حكاية أمي لا تفكر أن تخرج من المكان الذي تقبع فيه.

سأُواصِل، لكني لا أستطيع الآن. سأُسخِّن الخَضراوات، ولا بد أن أُشاهد نشرة الأخبار في التلفاز في الثامنة من كل يوم. أُحبُّ الأكل وأنا أُشاهِدها. أشعر هكذا بالصُّحبة وأطَّلع كذلك على ما يحدث في الخارج.

صحيح.

لكني لن أُغيِّر عاداتي فقط لأنك معي الآن، وبينما أُسخِّن الخَضراوات وأستحمُّ لن يصيبك سوء إذا استحممتَ. استغِلَّ وجودك في الحمام وعدم انشغالك بشيء آخر.

اسمع كلامي وخذ لك دُشًا جيدًا؛ فعلى الأقل ستكون نظيفًا حينما تخرج من هنا.

حسنًا، هاك قطعتان من البسكويت. هما الأخيرتان. سأجلب لك المزيد بعد النشرة، لكن فقط إذا تحمَّمت. إذا لم تفعلها، فلن تحصل على المزيد.

لا تكن مُقرفًا. أنت عمرك أربعة عشر عامًا، لكن الأمر يبدو كذبة.

* * *

يا لَه من عالَمٍ قبيحٍ يا فتى! يحدث هذا في كل ليلةٍ هناك في الخارج. الأمر مُرعِب؛ قالوا اليوم إنَّ ولدًا قَتل ثلاثةً من زملائه في المدرسة. أزعجه مُزاحِهم معه. سرق مسدس أبيه الذي كان شرطيًّا أو من حرس الدرك. لا أتذكر. ثم ذهب إلى الفصل وبدأ في إطلاق النار. قَتل ثلاثةً من زملائه، وهناك عددٌ

أكبر من المصابين. قالوا أيضًا إن فتًى آخر، أصغر منك، عمره أحد عشر عامًا سرق كُشكًا وقَتل صاحبه. قتله لسرقة عشرين بيزو. أمرٌ مرعب.

هل استحممتَ؟

جيد جدًّا. هكذا تُعجِبني. أُهنِّئك.

سأجلب لك على الفور البسكويت الذي وعدتُ بجَلبِه حال استحمامك، لكي تعرف أنني سيدةٌ تَلتزِم بكلمتها. سأعود على الفور.

خذ ولا تفخر بنفسِكَ يا سانتي، وإلا فلن أُمرِّر لك ولا قطعةً واحدةً أخرى من البسكويت لتموتَ من الجوع عندك في الداخل. يجب أن تذهبَ إلى المدرسة وتتوقَّف عن ارتكاب الحماقات، وألا تكون حِمارًا وجاهلًا بمثل هذه الصورة. كان هذا الفتى مجنونًا.

المُزاحُ أمر طبيعي في المدرسة، أنت لا تعرفُ ما اضطُرِرتُ إلى تحمُّله والأشياء التي كنّ يقلنها لي. تخصَّصَت ابنتا خالتي في التفوُّه بحماقاتٍ عنِّي وعن أمي، وهكذا يمكنك أن تتخيَّل ما الذي كانت زميلاتي يقُلنَه لي، لكن لم أكن لأَسيرَ وأفتح النيران في الأنحاء بسبب أمورٍ مثل هذه. كانت أزمنةً أخرى. كنا أكثرَ أدبًا وتهذيبًا. كنتُ أبكي كثيرًا وأحبس نفسي في الفُسحة بالحمام لأبكي. كنتُ أخرج فقط حينما يدقُّ الجرس. لم يكن لديَّ ولا صديقةً واحدة. لن تُصدِّق كمَّ المعاناة التي تعرضتُ لها في المدرسة، لكن لم يخطُر لي قط الانتقام من زميلاتي.

كانت مدرسة راهبات. كلها من البنات. بعضُهنَّ أسوأ من غَيرِهن.

لا، لم يخطر ببالي ولو لمرةٍ واحدةٍ الانتقام من ابنتَي خالتي، على الرغم من أنهما ربما كانتا تَستحِقانِه بجدارة... كما أقول لك بجدارة. وإن كنتُ لا أُنكِر أنني حلَمتُ بأنني أقتلهما في ليلةٍ ما.

صحيح، بين الحين والآخر أَحلُم بالأمر.

أَحلُم بأنني أُغرِقُهما في البحر.

أَقتربُ منهما مبتسمةً وأُغرِق رأسَيهما، هما الاثنتين. تُدافعان عن نفسَيهما، لكنهما تَعجزان عن القيام بشيء. تُخرجان رأسَيهما بعينَين متسعتَين، بينما أَضحكُ وأُعاوِد الكَرَّة بإغراق رأسَيهما مرةً تلو الأخرى حتى لا تتمكَّنا من المقاوَمة وتَغرَقا. أعودُ بعدها إلى الشاطئ في قِمة الهدوء وأستمرُّ في تشييد قلعةٍ رمليةٍ كنتُ أصنعُها قبل اتخاذي لقرار دخول البحر لإغراقِهما.

يأتي هذا الحُلْم في منامي كلَّ فترةٍ يا سانتي. هو مجردُ حُلْمٍ وليس حقيقة، فما قصُّوه في نشرةِ الأخبار مُختلِف تمامًا؛ فقد ذهب الولد وقتَلهم. لم يَحلُم بشيء. أخرج مسدسه وأطلق النار عليهم. هذا ضربٌ من الجنون، أما الآخر، في حادثة الكشك فأعتقد أنه قتل صاحبه لأن مبلغ العشرين بيزو الذي سلَّمه له بدا له قليلًا، وهكذا غضب وقتله دون أن يُلقِيَ بالًا لأي شيء. لا بد أنه كان تحت تأثير المخدرات. هل تتعاطاها؟

آه، لحُسن الحظ يا عزيزي. سِكة المخدرات موحشة.

لديَّ شك ما...لو فشلتُ في خدعة حبسِكَ بالضَّبَّة والمِفتاح في الحمام، هل كنتَ ستغضبُ وتقتلني؟

بكل تأكيدٍ تقول لا الآن، لكن كيف لي أن أعرف أنك تقول الحقيقة؟

لا أعرف إن كان بإمكاني تصديقُك.

وحينما أنتهي من قصِّ حكاية أمي وأفتح لك الباب؟

لا أعرف. ربما. أنا أحبك كما لو كنتَ حفيدي يا سانتي، لكن في الحقيقة لا أعرف ما الذي قد تفعلُه في هذه الحالة؛ فربما تكون وأنت في الداخل تلعبُ

دور الطيِّب فقط لكي أسمح لك بالخروج.

أتمنى أن يكون ما تقوله صحيحًا.

طيب... حانت ساعة النوم. لقد تأخَّر الوقت كثيرًا. عادةً أستحمُّ بعد انتهاء نشرة أخبار الثامنة في الحمام الآخر، ذلك الأكبر والمجاور لغُرفتي وأذهب بعدها إلى الفراش. لحُسن الحظ أن الشقة بها حمامان، وإلا فتخيل كيف كان سيصبح الوضع الآن.

لا، اليوم سهرتُ نوعًا ما لأنك معي، ولأنني يجب أن أُقدِّم لك البسكويت الذي وعدتُك به، لكن في أي يومٍ آخر كنتُ سأصبح مُمدَّدة الآن في الفراش.

بالفعل، صحيح، سأُمرِّر لك الآن البسكويت المتبقِّي.

لذيذ! أليس كذلك؟

لا، لا يمكنني أن أستمرَّ في قصِّ حكاية أمي الليلة. أنا مُنهَكة جدًّا. لقد تحدثتُ طوال اليوم.

سبق أن شرحتُ لك. لا تتذمَّر. افرِش المناشف على الأرض، ونومًا هنيئًا.

اهدأ. سأستيقظُ في الصباح الباكر غدًا وآتي لإيقاظِك فورًا. لا تحزن.

أترى؟ هذا هو ما سبق أن قلته لك. أنت لا تَثبُت على حالة. ها أنت مُجدَّدًا تصيح ببذاءاتٍ وتضربُ على الباب. ما الذي ترغب في الوصول إليه؟ الباب مُصمَت ولن يسمعك أحد. أُؤكِّد لك هذا.

أعتقد أنك تتعاطى المُخدِّرات، على الرغم من أنك أقسمتَ لي على العكس، بل وأنك قادر على ارتكابِ حماقةِ قتْلي حينما أفتحُ لك الباب.

سأُضطَر إلى التفكير في المسألة.

ما تقوله محضُ كذب. ستنام هنا وهذا أفضل بكثيرٍ من تلك العشة. لا تتحامق. أنت تعرف هذا أفضل منِّي.

وهذه أكذوبةٌ أخرى. لن يَلحَظوا حتى أنك لم تَصِل؛ فمع العدد الذي أنتم عليه لن يُدرِكوا غيابك. أتظن أن أحدهم سيَفتقِدك؟

أنت مخطئ. لن يَحدُث هذا مع أمِّك بالمرة. لقد فاض بيَ الكيل. سآخذ دُشًّا وبعدها إلى الفراش.

تُصبِح على خير.

الجمعة 30 نوفمبر

صباح الخير يا سانتي.

أقول لك صباح الخير يا ولد.

سانتياغو؟

أرأيت؟ وبعدها تقول لي إن شراب الماتي جيد وإنك لا تعرف شيئًا عن الغاوتشو. كُسالى. الغاوتشو كانوا كُسالى مثلك تمامًا. وكيف يُمكن أن تنام حتى الآن. ألا تعرف كم الساعة الآن؟

السادسة والنصف.

أشرقَت الشمس منذ أكثرَ من ساعة. مكثتُ بعض الوقت في الفراش لكيلا أُضايقَك، لكن يبدو لي أنك في خير حال. لا يمكن أن يَقضيَ المرء حياته مُمدَّدًا في الفراش.

هو مجرد مصطلحٍ لوصف حال.

هل مازلت مُستاءً؟

خذ قطعتين من البسكويت. الإفطار الجيِّد مهم. إذا لم تفطر جيدًا، فستعاني من مشاكل صحية بعد سنوات. إذا رغبت في بلوغ الثالثة والتسعين مثلي، فالأفضل أن تنام باكرًا وتستيقظ مع شروق الشمس لتتناول فطورًا مناسبًا.

حسنًا... لا يمكنني أن أُمرِّر لك كوبًا من الشاي مع الحليب أو عصير البرتقال من أسفل عقب الباب.

عليك أن تَرضى اليوم بالبسكويت أو الرقائق إذا رغبت. كما تحب.

لا تتذمَّر. لا أظن أن فطورك في العشة يتعدى كونه بضع قطع من البسكويت. انظر إلى نفسك قليلًا في المرآة. أنت مجرد جلدٍ على عظْم، مرثية لكينونة الإنسان.

لا، لا. ما تقوله سيّئ يا سانتي.

احترِم من هم أكبر منك سنًّا يا سانتي. لن أسمح لك.

مساءَ أمس كنتَ مهذبًا جدًّا وصحبةً جيدة وشديدَ اللُّطف، لدرجة أني كنتُ سأتركك تخرج من مكانِك. إذا كنتُ لم أفعل هذا، فالسبب أنني لم أفرغ بعدُ من قصِّ حكاية أمي مع ذلك الرجل، لكن بعدها، وتحديدًا من اللحظة التي أخبرتُك فيها أنني سأذهب للنوم، تغيرتَ تمامًا وبِتَّ مثلما عرفتُك صباحًا: مجرمًا، عديمَ الاحترام وحثالة. أتظن أنني لم أسمعْك الليلةَ الماضيةَ تضربُ البابَ لفترةٍ طويلة؟ ما الذي كنتَ تسعى إليه؟ إسقاطه؟ لن تتمكَّن. سبق أن شرحت لك. هذا بابٌ قويٌّ من خشب صُلْب. باب من أبواب زمان. أبواب اليوم تبدو كأنها مصنوعة من الورق لكن سابقًا لم يكن الأمر كذلك، كانوا يصنعونها كما يأمر الرب.

لحُسن الحظ أنني لم أَدَعك تخرج؛ فقد كنتَ قادرًا على طعني.

لا أعرف. مسألة الظُّفر تبدو لي شديدةَ الغرابة.

خُذ. من الأفضل أن تتناولَ قطعةً أخرى من البسكويت. أنت بحاجةٍ لتأكل.

هكذا تُعجِبني؛ أن تشكرني. الامتنان أمرٌ جميل. كان بإمكاني ألَّا أُقدِّم لك شيئًا، ولا حتى قطعة بسكويت، أو ربما أُبلِغ الشرطة عنك. كنتُ قادرةً على فعل الكثير، لكن انظر، ها أنا هنا أرعاك كأنك حفيدي وأمنحك دروسًا ستنفعُك في الحياة بشكلٍ ما.

نعم. بالتأكيد سأُواصِل قصَّ حكاية أمي، لكن يجب أن تنتظر بعض الوقت حتى أتناول إفطاري أنا أيضًا.

سأعود فورًا.

* * *

كان الصُّبح قد بدأ ينبلج. أقصد أن الرؤية باتتْ مُمكِنة، وهذا تحديدًا كان أصل المشكلة التي جرتْ لاحقًا.

ستعرف ما أقصده الآن. لا تتعجَّل.

أكَّد الرجل لديليتا أنهما وصلا، وأن الطائرة باتت في المكان المُلائم للإقلاع، ثم سألها على الفور بنوعٍ من العجرفة عما تُريدُه منه أيضًا. تحلَّتْ أمي بالهدوء المُناسِب لمُعطَيات الوضع؛ ولهذا لم يَبدُ عليها أيُّ تأثير. أمرتْه بأن يُشغِّل الطائرة لأنها في الحقيقة لم تكن تَعرِف كيف تفعلها. قاطعها بحِدَّةٍ بينما يَرسمُ على وجهه تلك الإيماءةَ المُبتسِمة الحمقاء التي حدَّثتُك عنها أكثر من مرةٍ قائلًا «ولو رفضت؟» فكان كل ما قالتْه ديليتا: «إذا لم تُشغِّلها فسأقتلك. سأقتلك هكذا بكل سهولة، وبعدها مع الوقت سأتعلَّم كيف أُشغِّلها بمفردي.»

المُقاطَعة أقوى من السؤال، أكثر عَدائية، كأنك تَغرِس سؤالك في شخصٍ ما. لا أعرف إن كنتَ تَفهمُني.

أنا سعيدة يا سانتي. كنتَ ستُصبح طالبًا جيدًا، ولكي يحدُث هذا بكل تأكيدٍ يجب أن يتوقَّف أبواك عن شُرب الخمر طوال اليوم ويعملا على إرسالك إلى المدرسة كما يجب أن يكون الأمر.

طيب، طيب. سأُواصِل.

ربما تظنُّ أن الإيماءة التي ارتسمتْ على وجه الرجل تبدَّدتْ مع قسوة كلمات أمي، لكن لا؛ ما حدث كان على النقيض تمامًا، افترشت ابتسامةٌ عريضة وجهَ الرجل، ابتسامةٌ صارخة، ولم يُعجب هذا الأمر ديليتا على الإطلاق، وحينما أقول على الإطلاق يا عزيزي أعنيها. وها نحن هنا وصلنا إلى النقطة التي قلتُ لك فيها سابقًا إن الصُّبح قد بدأ ينبلج. لمحتْ أمي في البداية إيماءةَ وجهه وبعدها رأت بصورةٍ مثاليةٍ ضِحكته، ولم تتحمّل وأطلقَت النيران.

أي نعم. ضربتْه بالرصاص.

أصابَت الطلقة كَتِفَه وسقط الرجل على الأرض صارخًا.

كان جبانًا يا سانتي. لا تُدافِع عنه. مُجرَّد بائس. وصمة عارٍ على بني البشر.

تُدافِع عنه لأنك ذَكَر، وأيضًا لأنك مُجرِم مثله، لهذا السبب تحديدًا، لكني أرى أن ديليتا فعلتْ ما كان يجب عليها فعله. لم تفعل سوى الصواب.

لا، لم تقتله.

ظلَّ الرجل مُمدَّدًا على الأرض جريحًا، وسط نحيبٍ وتأوُّهاتٍ وهو ينظر إلى الدم يسيل من كَتِفِه بغزارةٍ ويتأسَّف حتى أعمق أعماقه -كما أفترض- على فِكرتِه التعيسة بالسُّخرية من أمي.

لا أسمح لك.

ودَعْني أُخبِرك: تعلَّم مما سأقوله لك: لا يخطرنَّ ببالك أن تسخر مني مُجدَّدًا. على الرغم من كَوني قبيحةً جسديًا مثل أبي، فإنني على صعيد الشخصية أُشبه جدًّا ديليتا، وهذا أمر لا أقوله من نفسي، بل سمعتُه من فَم خالتي طيلة حياتي.

أُحذِّرك لكي تعرف المسألة ولكيلا تختلط الأمورُ في رأسك. لا أكثر ولا أقل. ربما أُعطي انطباعًا بكَوني طيبةً ودمثةً جدًّا، لكنْ أنا امرأةٌ تعرف كيف تُجبِر الجميع على احترامها يا فتى.

هذا ليس تهديدًا.

مُطلقًا.

أخبرك فقط بحقيقة طباعي.

أرأيت؟ لقد أنهكتَني مُجدَّدًا. هذه القصة لن تنتهيَ هكذا. سأذهبُ لجلب بعض المُشترَيات وأتمنَّى أن تكون قد هدأتَ لدى عودتي.

* * *

التسوُّق يا فتى تدريبٌ بالنسبة لي. نشاط أُوظِّف فيه كل إصراري؛ ولهذا أقوم به كلَّ يوم. لا أشتري أبدًا ما يَزيد عن الحد، باستثناء الرقائق بكل تأكيد؛ فهذا الوعاء يجب أن يظل ممتلئًا حتى رأسه. اليوم الوحيد الذي لا أخرج فيه للتسوُّق هو الأحد. الأحد للراحة، تمامًا مثلما ارتاح الربُّ بعد خلق الكون. أسيرُ عدة مربعاتٍ سكنية، في البداية نحو محلِّ الخَضراوات، وبعدها حتى المخبز، وبين الحين والآخر إلى الجِزارة. فقط بين الحين والآخر؛ فاللحم ليس جيدًا للروح. ليس غذاءً جيدًا. إذا أمعنتَ النظر، فستجد أن رجال الغاوتشو كانوا وما زالوا يأكلونه، وانظر إلى حالنا!

حسنًا، لا تَصنعْ مشكلةً من العدم.

لكنَّ ما أفعله ليس تدريبًا بدنيًّا فقط؛ فحينما اخرج أشغِّل ايضًا راسي. أنا أدعو هذه المسألة بـ«تدريب الذاكرة». أتوقَّف على بُعد ثلاث خطوات أو أربع من الصناديق في محل الخَضراوات، وأبدأ في ترديد أسماء الفواكه والخَضراوات، داخلي بكل تأكيد. لا تظن أنني أسيرُ بينما أنطق أسماءها بصوتٍ عالٍ كأنني مجنونة. لا، لا بصورةٍ قاطعة. أُواجِه بعض المشكلات أحيانًا. لن أُنكِر هذا. أُضطَر إلى الاقتراب قليلًا من الصناديق حينما لا أُبصرُها جيدًا، أو لأنني لا أتذكر مباشرةً أن الباذنجان يُدعى الباذنجان. أخبرك عنه لأن موسمه لا يستمر طوال العام، وحينما تَظهر أولى ثِمارِه يَصعُب عليّ تذكُّر اسمه. منذ فترة قصيرة -منذ عدة أيامٍ تحديدًا- كنتُ على وشك معرفة الاسم حينما رأيت الصندوق. أُقسِم لك أنه كان على طرف لساني، لكن لا، لم أنجح واضطُرِرت إلى الاقتراب نحو الخُضَري لسؤاله، وخجلتُ كثيرًا فاشتريت واحدة. حينما عُدت إلى المنزل، تخلصتُ منها بالتأكيد. لونها جميل، لكنَّ الباذنجان لا يُعجِبني بتاتًا. أفعل نفس الشيء في المخبز، وإن كنت أقتربُ أكثر هناك من البضائع. أعتقد أنه قد يَصعُب على أي شخصٍ التمييزُ بين الكرواسو وحلوى الـ«بيخيلانتي» من على بُعد ثلاث خطوات أو أربع، وأنا فوق كل هذا كبيرةٌ في السِّن ولا أرى جيدًا؛ لهذا أقترب نحو مترٍ تقريبًا وأبدأ هناك في ترديد الأسماء الموجودة أمامي، ليس فقط المخبوزات، بل الكعك أيضًا. أفضَل ما في المخبز أنهم يتركوني أمكُثَ لفترةٍ طويلة جدًّا لتدريب الذاكرة، على عكس محلِّ الخَضراوات؛ فهناك بمُجرَّد أن يحين دوري أُضطَرُّ إلى التوقُّف والشراء، لكنَّهم في المخبز يتركونني ولا يتضايق أحد من كَوني لا أطلب شيئًا. هم أُناسٌ طيِّبون، أطيب بكثيرٍ من محلِّ الخَضراوات.

كِدتُ أنسى. جلبتُ لك هدية.

نعم. لك.

انتظرني هنا سأعود على الفور.

هذه طريقةٌ لكي أقول لك: من فضلك، لا تُعكِّر مِزاجَك مُجدَّدًا يا سانتي، وإلا فلن أُقدِّم لك الهدية.

اسمعني. إن استمرَرْتَ هكذا فستضيع عليك الهدية، ولا أُفكِّر في تَكرار ما قلتُه مرةً أخرى.

جيد جدًّا.

جلبتُ لك حلوى الـ«باليز». سأُمرِّر لك واحدة. أتمنَّى أن تُعجِبك.

لحُسن الحظ! لا تعرف ما اضطررت لفعله، اشتريتُ في البداية البسكويت، نفس النوع الذي أَعجبَك أمسِ وسددتُ عند الصَّراف ثم ذهبتُ إلى الرف الذي رأيت فيه الـ«باليز» وأخرجتُ واحدة وقِستُها مع قطعة البسكويت لمعرفة إذا كانتا متساويتَين في الطول، وإن كانت ستمرُّ من تحت عقب الباب، وبالفعل كانتا متساويتَين تقريبًا، وبعدها عُدتُ نحو منفذ الشراء وطلبتُ رُبع كيلو، وحينها واجهتُ مشكلةً لن تصدقها. قالت عجوز سمينة للخبَّازة إنني لم أقف في الصف، وإن هذا لا يصحُّ، ويجب أن أنتظر دوري، لكن الخبَّازة شرحتْ لها أنني كنتُ هناك قبل وصولها بوقتٍ طويل وأنني ابتعتُ البسكويت وطلبت منها تفهّم أنني نسيت الـ«باليز». وأدَّت ليَ الخدمة المطلوبة، بينما لم تتوقَّف العجوز عن الثرثرة.

نعم. العجوز.

ما الذي يُضحكك؟

لا تكن أحمق. كانت عجوزًا، وفوق كل هذا سمينة.

خذ قطعةً أخرى من الـ«باليز».

جميل أنها تُعجِبك. إذا سمحتَ لي، أُحبُّ أن أتناول واحدة، وإن كنتُ قد جلبتُها في الأساس لك.

شكرًا. أنت لطيفٌ للغاية.

خذ واحدةً أخرى. سأُمرِّرها لك ولنقترح نخبًا إن شئت.

في صحتك أنت أيضًا يا سانتي.

أحب أن تدعُوَني «ليتا».

يا لَحلاوتها! لم أتناول الـ«باليز» من فترة. أتمنَّى ألا تُصبِح ثقيلةً على معدتي، هي ثقيلة نوعًا ما كما رأيت، فيها كثير من السُّكَّر، والإفراط في تناول السكر بالنسبة لمن هم في سنِّي... لن أُكمِلها. لك أن تتخيَّل.

حسنًا. ها أنا أُمرِّرها لك.

لا، لن أتناول المزيد. كل شيءٍ تقريبًا يجعلني أتوعَّك يا فتى؛ لهذا يجب أن أستخدم شجاعتي كثيرًا لئلا أنساقَ وراء رغباتي. أنا كبيرة جدًّا. كركوبة. يجب أن أتحلَّى بالقُوة وأعرف متى أتوقَّف لأعتنيَ بنفسي.

معك حق. واحدةٌ أخرى لن تُصيبَني بأي سوء. سأُمرِّر لك واحدةً أخرى ونتناول نخبًا من جديد. أحببتُ كثيرًا القيامَ بالأمر.

في صحتك يا عزيزي. هذه المرَّة أقترحُ نخبًا حول معجزةِ عثور كلٍّ منَّا على الآخر في حياته، إذا كان يروق لك بكل تأكيد.

شكرًا. أنت لطيفٌ للغاية.

إذًا يا فتى... هل بدأتَ تُحبُّ العَيش معي؟

كن صادقًا من فضلك. هذه مجرد عبارةٍ مُصطنَعة.

أشك في كونها صادرة من قلبك. لا حاجة للكذب عليّ أو مجاراتي، أبدًا، عليك أن تكون صادقًا فقط، على أي حال، سأواصل تمرير حلوى الـ«باليز». ها هي قطعة أخرى.

لا، أنا لا، لن أتناول المزيد.

نعم. حسنًا. أنت محقٌّ في هذا.

أتفق معك أن الوضع ليس طبيعيًّا بالمرة. أنت محبوسٌ وهذه حقيقة، لكن هناك حقيقة أخرى، أنك بالأمس كنت ترغب في سرقتي، وفي النهاية ما أقول لك!... أنا أيضًا أعيش محبوسة.

صحيحٌ أنه يُمكِنني الخروج، لكن إلى أين؟ محل الخَضراوات أو المخبز، وأحيانًا الجِزارة أو متجر الحيوانات. ليس أكثر من هذا. لكي يخرج المرء يجب أن يجد مكانًا يخرج إليه، وأنا ليس لديَّ أيُّ مكان أو حتى صديقة، بل ليس لديَّ ابن. صدِّقني أنا محبوسةٌ مثلك تمامًا يا سانتي.

لا تكن مُحتالًا. إذا سمحتُ لك بالخروج فستَطعنُني بكل تأكيد.

لا، سبق أن قلتُ إنني لا أُصدِّق هذا. هل كنتَ حقًّا تهجمُ عليَّ بظُفر؟ لا تُصِرَّ على تكرار الأمر. وأيضًا إذا سمحتُ لك بالخروج وحالفَني التوفيق ولم تَقتُلني، فما الذي ستفعلُه؟ ستذهب بكل تأكيدٍ لسرقة عجائزَ أخريات، ولن تتذكَّر المرورَ لزيارتي بين الحينِ والآخر. أنا أعرف. الناس يَنسَون سريعًا كل شيء.

كيف ستتمكَّن أنت من إنقاذ نفسك؟

هذا ليس صحيحًا. يجب أن ينقذك أحد؛ صديقك أو أبوك، وأنا نفسي،

لكن أنت وحدك عاجز.

لا أفهمُك.

أنت تتحدَّث بطريقةٍ شديدة الغرابة يا سانتي. لا أفهمُك بكل صِدق.

الآن فهمتُك.

لكن لا تتذمَّر أكثر من هذا يا فتى.

إذا تمعَّنتَ في الأمر، فستجد أنني أُقدِّم لك خدمةً بحبسك داخل الحمام الصغير، خدمةً كبيرةً بالمناسبة. الخارج مكانٌ خطير للغاية. تحتاج فقط إلى مشاهدة التليفزيون قليلًا لتُدرِك هذا.

أي نعم. بكل تأكيد.

لو كنتُ أطلقتك، لكنتَ تسير الآن في الشوارع تسرقُ الناس، وهذا قد يُودِي بك إلى التَّهلُكة: إما في الإصلاحية أو أنك ستُقتل.

نعم. ستُقتل.

إنك لا تصّدق هذا الأمر لأنك وفي هذا السن تفكر أن لا أحد يستطيع إمساكك، أنك قادر على الإفلات من أي شيء ومن كل شيء، تعتقد أنك خالد وستحيا إلى الأبد، لكن كلا يا عزيزي، لا أحد يعيش إلى الأبد، حتى أنا التي عشتُ كثيرًا. أُحدِّثك عن ثلاثةٍ وتسعين عامًا وفي طريقي إلى الرابعة والتسعين. وأَنصِت جيدًا لما سأقوله لك: يمكن دائمًا أن يكون هناك شرطي، عند أي ناصية، يكتشف ما تفعل، وأيًّا كان الجرم الذي ترتكبه، فإنه بدلًا من حبسك في حمامٍ وتدليلك بالبسكويت والـ«باليز»، سيوجه نحوك طلقة في منتصف جبهتك.

وما هذا الذي تقوله عن أنك ستُنقِذ نفسك؟ لا أفهمُك يا سانتي. لماذا

لا تَبذُل بعض الجهد وتشرح بصورةٍ أفضل.

الآن أفهم.

لكنَّ كَوني أفهمُك لا يعني أنني أُصدِّقك. لا تُخطئْ يا فتى. إذا كنتَ تظن أنه لكَوني عجوزًا فإن بإمكانك أن تقول لي أي شيء لأركضَ بعدها نحو رفِّ الرُّواقِ لأجلب المِفتاح وأفتح لك باب الحمام فأنت واهم يا بُني. واهم جدًّا.

فأنا في المقام الأول لم أَفرغْ من قصِّ حكاية أمي لك، وفي المقام الثاني، بمجرد انتهائنا من الأمر، يجب أن تجتهد كثيرًا؛ أَقصِد أن تفعل ما يقنعني بأنك لن تَقتُلَني بمجرد أن أفتح لك الباب.

قطعة أخرى من الـ«باليز»؟

حسنًا، بما أنك جوعان.

هل يمكن أن تظلَّ جائعًا بعد كل قِطَع البسكويت والـ«باليز» التي الْتهمْتَها بالفعل؟

يبدو أنك تُعاني من الدودة الشريطية.

هي طُفيليات تعيش داخل الأمعاء وتلتهم كل ما تتناوله. ديدان طويلة. حُثالة. اسمها العلمي هو «تينيا ساجيناتا». لا أعرف. ربما تكون الـ«تينيا» دودةً أخرى. الآن أشكُّ فيما قلتُه. المهم أنه حينما تعاني منها فإنك لا تَسمَن، لكن ما يَسمَن هو الطُّفيلي؛ الدودة الشريطية. ألم تلحظ الأمر قطُّ بعدَ تَغوُّطِك. تنبعث من بِرازك رائحةٌ سيئة وتظهر الدودةُ فيه.

كخيطٍ أبيضَ سمينٍ لزج.

أَواثِقٌ من أنك أمعنتَ النظر؟

حسنًا. إذًا أنت لا تعاني منها. فلْتهدأ. ربما تكون في طَورِ النمو فقط أو المراهقة. لا تقلق، وإن كنتَ لن تخسر شيئًا إذا نظرت بين الفَينة والأخرى لما يَخرُج منك. هذه أفضل طريقةٍ لمعرفة إذا كنا أصِحَّاء أم مرضى: لون وكثافة ورائحة البِراز. ترتبط كل هذه الأمور بصورةٍ وثيقةٍ بصحة وسوء أبداننا. أنا أنظر دائمًا، ولإزالة أي شكوكٍ أنصحُك يا عزيزي بأن تفعلها.

صحيح، هو أمر مُقزِّز نوعًا ما. لن أُنكِر، لكن إن كان قادرًا على إنقاذنا من الأمراض، أعتقد أنه يستحق العناء. انظر للسنوات التي عشتُها عبر مُراقَبة جودة عملية الإخراج عندي بعناية.

انظر إلى مجرى الأمور: بحديثنا عن هذه المسائل المُنفِّرة، خطرتْ لي فكرة جيدة.

لا يمكنني الكشف عن شيء. سأعود بعد قليل.

* * *

عدت، لكن اعذرني، لا يمكنني أن أبقى برفقتك يا فتى. لديَّ الكثير من العمل.

الكثير لأفعله.

لا، لا يمكنني أن أخبرك.

أرغب في أن تُصبِح مفاجأة!

سأستغرق نصف ساعةٍ تقريبًا. ربما أكثر بقليل.

تَحَلَّ ببعضِ الصبر. الزمنُ يمرُّ طائرًا.

* * *

انتهيت، لكنْ صدِّقني ستكون المسألةُ معقَّدة. أنصت لي بانتباه: سأُحاول أن أُمرِّر لك المفاجأة التي جهَّزتُها من أسفل الباب. وضعْتها داخل صفحةٍ من جريدةٍ لكي يَسهُل عليك الأمر. أعرف أن الجريدة قذرةٌ بعض الشيء وقد تترك بُقَعًا، لكن ليس لديَّ شيء أفضل من هذا. لا تُركِّز كثيرًا فيما قلتُه الآن. حينما ترى جزءًا من الصفحة يَظهر عندك، اجذبها بقوةٍ واعتقد أنها هكذا ستمرُّ. ها نحن نفعلها.

هل أمسكتَها؟

نعم. رأيتُ الآن.

و؟ ما رأيك؟ لم تَكن تنتظر هذا؟ صحيح؟

بالفعل.

كنت أخشى من ألا تَمُر.

كيف يخطر ببالك أمرٌ مثل هذا؟ كُلْ بيديك. لن أمرِّر أدوات مائدةٍ لك ولا في أحلامك المجنونة. يا لَأفكارِك! لديك فكرةٌ لكل شيءٍ يا فتى، وتطلب مني الآن أدوات المائدة!

ولا حتى شوكة واحدة!

لا تَعِشْ دور المترف؛ أنتم في منزلكم تأكلون بأيديكم بكل تأكيد.

لا، لم أُجهِّزها بنفسي. حمَّرتُها فقط. ابْتعتُها من الجزَّار وهي مُجهَّزة. طلبتُها رقيقةً للغاية، أن تكون أرقَّ ما عنده.

ابتعتُ لك أربع. حينما تجوع، قل لي وسأُعدُّها لك، وأتمنى ألا تشكوَ ثانية من الجوع في حبسك هذا. استمتع بشريحة اللحم وتوقَّف عن المُزاح. يبدو في النهاية أنه لا شيء يُرضِيك.

لم أخرج مرتَين صباحًا في نفس اليوم منذ سنوات، بل أعتقد أن البواب شكَّ؛ لهذا اقترب ليسألني إذا كنتُ أُواجِه مشكلةً ما. نفيتُ بشكلٍ حاسم وقلتُ له إنني اشتهيتُ فجأةً شرائح اللحم. هو يجهل بكل تأكيدٍ أنني لا آكُله أبدًا.

هكذا أفضل. أنا سعيدةٌ بأنها أعجبتْك. تَذكَّر أن المُتبقيَ ثلاثُ قطع. كان نصف كيلو تقريبًا. حينما ترغب في الأكل مرةً أخرى، قل لي وسأبدأ الطهو.

هل انتهيت؟

ألا يبدو ذلك كثيرًا؟ اسمعني... المَقليَّات ترفع الكولسترول، والكولسترول سيّئ للغاية؛ يسدُّ الشرايين، وعندها تأتي السكتات القلبية، وإن كنتُ أعتقد أنك يافعٌ لتعانيَ من مشكلاتٍ في القلب.

طيب إن شئت سأُعِد لك المزيد، لكنك ستبقى وحدك مُجدَّدًا. لا تهتّم؟ لن تَملَّ؟

يا لكَ من محظوظ! كنتُ وحيدةً طيلة حياتي. مللتُ كل الملل، ولحسن الحظ أنت لديَّ الآن.

نعم. أنت صُحبتي. لا تعلم كم تحسَّنَت نفسيَّتي بمعرفتك، ورغبتك في البقاء معي، على الرغم من المجهود الذي تَفرِضه عليَّ المسألة، إنك لا تتخيل سعادتي بوجودك معي في شقتي يا سانتي.

ماذا؟

متى تعترف بأنني أنقذتُ حياتك؟ لكنت ميتًا الآن بالفعل، لو ضبطَك رجلُ شرطةٍ وأنت تسرق.

حسنًا، كما تقول. أنا حبستُك، لكنك أيضًا تريد البقاء معي بالشكل

الذي انتهى عليه الأمر الآن، لا تهمنى الطريقة لكنها تسعدني للغاية، سعيدة بالقدر الذي لن أمانع فيه أن أخرج للشارع صباحًا وكلما استدعت الضرورة، إن كان هذا سيجعل حالك تتحسّن، بل حتى أنني سأطهو لك كل ما تشتهيه لحظة تشتهي.

لا، لن أسمح لك بالخروج.

لا، لم يَحِنِ الوقتُ بعدُ. لستُ مُتحمِّسة.

لا، لا تتعلَّق المسألة بثقتي بك، أعتقد أنه وَفقًا لحدٍّ معرفتنا هذا، فأنت شخصٌ طيبٌ ولن تُهاجِمَني بسكينٍ إنْ سنحَتْ لك الفرصة، لكنَّ السماحَ لك بالخروج شأنٌ آخر.

ما زلتُ لم أنتهِ من قصِّ حكاية أمي لك، ما الذي قد يَحدُث إذا استغلَلتَ سماحي لك بالخروج لتَفرَّ ولا تعود مطلقًا لزيارتي؟

لا، لا.

لا وألف لا.

لا تُصِر.

من الأفضل أن نترك الأمور كما هي: أنت في الداخل لتتعلَّم كلَّ ما يمكنك تَعلُّمه، وأنا هنا في الجانب الآخر لأُعلِّمك تمامًا مثلما كنتُ مُدَرِّسة. تَعامَل مع المسألة كأنك تذهب إلى المدرسة. الأولاد حينما يذهبون إلى المدرسة يَقضون ساعاتٍ عدةً محبوسين بينما يستمعون إلى كلام المُدرِّسة.

سنرى حينها. بعدما أنتهي من قصِّ حكاية أمي، سنتكلم بخصوص المسألة مُجدَّدًا.

حسنًا، هل ترغب في أن أُعِد لك شرائح اللحم المتبقية؟

اتفقنا.

إلى اللقاء.

* * *

ها أنا قد جئت.

طَهوتُ هذه في الفرن، بسبب ما قلته لك عن الكولسترول، لكنك لا تدري كم تعبت لأوقد الفرن. لم أفعل هذا الأمرَ مُنذ سنوات. يجب لفُّ محبسِ الغاز والانحناء حتى الأرض، وفوق كل هذا إدخال عود الثقاب في ثقبٍ صغير جدًا. يَصنعون هذه الأشياء للشباب فقط، سترى حينما تصل إلى عمري مدى الصعوبة التي قد يُصبِح عليها العالم؛ فالعالم بأكمله مُجهَّز للشباب، للأصِحَّاء، أما نحن -معشرَ العجائز- فتَحُلُّ علينا اللعنة كصاعقةٍ من السماء.

نعم، حالًا.

هي معي هنا في يدي. لكن قررتُ أن أُقدِّم لك قطعةً واحدة، سأترك القطعتَين المتبقيتَين حتى الليل. لا يصحُّ أن تقضيَ وقتَك كلَّه وأنت تأكل. انتظر حتى أجلس.

ها هي قادمة.

العفو. الاعتناء بك شرف يا سانتي.

حسنًا، سنواصل القصة. أين توقفنا؟

صحيح. بالفعل. شكرًا. تذكرتُ الآن.

ظل الرجل مُمدَّدًا على الأرض بجوار أحد إطارات الطائرة وعيناه

لا تصدّقان الدماء التي تسيل هي من كتفه. ظلَّ يشكو وينتحب وخلال بكائه الجبان طلب مُساعَدة ديليتا. استنجد بمشاعرِ أمي الطيبة. تركتْ ما كانت تفعلُه وهو تحريك الطائرة نحو مترين لكيلا يُعرقِل جسدُ الرجل عمليةَ الإقلاع الوشيكة، فكما أخبرتُك منذ قليلٍ أو ربما أمسِ -لا أتذكر- هذه الطائرات كانت خفيفةً للغاية. أترى؟ ها هي امرأةٌ وحيدةٌ استطاعت تحريكها دون أي مُعوِّقات.

وإن كنتَ لا تُصدِّقني، هذا ما حدث.

حسنًا، سأُواصِل، ولا تُشتِّتْني بحماقاتٍ أخرى من فضلك.

تركتْ ديليتا ما كانت تفعله واقتربت من الرجل، ربما دون أن تُفكِّر في مدى اقترابها. لنَقُل إنها فعلتْها وهي غافلة، وبكل تأكيدٍ استغلَّ الرجل إحسانَها وحاول رَكْلَها أو تنفيذ حركةٍ غريبةٍ لنزع المسدس منها، لكنه لم ينجح. ما تمكَّن من تحقيقه على النقيض هو أن تُصوِّب أمي المسدس ناحيتَه مُجدَّدًا لتُطلِق عليه النارَ للمرة الثانية.

على ساقَيه.

لا، حسنًا... ليس نحو ساقٍ معينةٍ على وجه الخصوص. لقد أطلقت النار في الحقيقة على ذلك المكان. أنت تفهمُني... ذلك المكان حيث تلتقي الساقان. لنَقُل إنه المكان الذي كان ذلك المنحطُّ يستحق أن يتلقَّى فيه رصاصةً منذ الفعل القذر الذي أَقدَم عليه في الليلة السابقة.

صحيحٌ يا ولد. هناك ولا تتحامق أكثر من هذا؛ فالحماقة لا تليق بك.

صرخ الرجل بكل رُوحِه بعدها صمَتَ وظل يتلوَّى على الأرض بينما يفقد الدم من كل جوانب جسده.

لا، لم يمت، لكنه كان مُصابًا بشدة.

دنَتْ أمي منه حينها عدةَ أمتارٍ حيث كان يرقد. لم تَقترب أكثرَ لأن الرجل قد يَعودُ لمُباغتَتِها بحركةٍ خشنةٍ أو ركلةٍ أو لطمة، ومِن مكانها أخبرتْه بأنها ستُحلِّق في هذا الصباح، تمامًا كما اتفقا قبلَ أن تدخل معه ذلك الفندق في لاريكوليتا، وأنه لو لم يخلّ بكلمته معها كرجلٍ محترم، لجرَت الأمورُ بصورةٍ مختلفةٍ. أخبرتْه بأسَفِها عما جرى، وأنها لم ترغب أن تصل الأمور إلى ما أجبرها عليه. وأنه بشكلٍ قاطعٍ مَن سعى وراء ما حدث، والمذنب الوحيد في كل ما جرى.

اعذرني، لكني أعتقد أن الذَّكَر بداخلك قد خرج الآن.

بكل تأكيد.

كلُ الرجال سواسيةٌ ويدافعون بعضهم عن بعض. كلهم حيوانات... تقريبًا.

لا، ديليتا لم تكن قاسية. على الإطلاق.

الأشياء التي حدثتْ لها... أمي كانت صادقة. لم تَقُل سوى الحقيقة.

وما علاقة هذا بما أقوله؟

لا تهمُّ الظروف يا فتى. الإنسان النزيه يجب أن ينطق بالحقيقة بأي ثمنٍ وتحت أي ظرف، وهذا كان تحديدًا ما فعلتْه أمي. لا أكثر ولا أقل.

وإن ساعدتْه وتبيَّن أنه يلعب دور الجريح كما فعل في المرة السابقة، وأن ما يسعى إليه هو الاقتراب منها لينزع المسدس ويقتلها بعدها؟

الدم قد يَسيل من أصغر خدش. هذا لا يُثبت شيئًا.

لا تكن طفلًا من فضلك.

أنت الآن تلعب دور الطيِّب، لكن يجب أن أُذكِّرك أنك أمس -تحديدًا

صباحًا وعند مدخل البناية- كنتَ تهاجمني في ظهري بسكينٍ أو مُدية أو أيٍّ ما كان. ما الذي كان سيَحدُث لو لم أقاوم؟ ها؟ أجِبْني!

وها قد عُدنا إلى حكاية أنه لم يكن معك سكين.

لا أصدقك.

كنت ستقتلني بكل تأكيد، على الرغم من كل ما تُؤكِّده حاليًّا.

صحيح، بالفعل. تقول هذه الأمور الآن لأنك بِتَّ تَعرفُني وأنا أُمرِّر لك البسكويت والرقائق، بل وحتى شرائح اللحم الرقيقة، من أسفل عقب الباب، لكن في صباح أمس... لكن لماذا أتحدَّث عن صباح أمس؟ كل ما يجب فعله هو مشاهدة نشرة الثامنة لمعرفة كيف تنتهي عمليات السطو إذا لم يُدافِع المرء عن نفسه أو رفض مَنْحَكم ما ترغبون فيه!

في النهاية... هل يجب عليَّ أن أُفكِّر بأنك تقف بجانب ذلك المنحطِّ وليس والدتي؟

آها، طيب. هكذا أفضل كثيرًا.

على أي حال، أنت بارع، بل وعبقري في إخراجي عن شعوري، بل وإبعادي عن قصة ديليتا. يبدو لي أنه على الرغم من شكواك، فإنك في الواقع لا ترغب في الخروج مُطلقًا من شقتي.

نعم، نعم.

ما أقوله هو إنك لا ترغب في الرحيل. لو كانت هذه رغْبَتَك لما أغضبتني هكذا، ولما قلت هذا عن أمي. كنت ستتوخى الحَذَر كثيرًا ولم تكن لتُقاطِعَني بين الفَيْنة والأخرى.

ما تقوله ليس حقيقيًّا.

سأُعِد لنفسي طبقًا من الحَساء، وهكذا سأرتاح لعدة دقائق من وقاحتك.

لا تلعبْ دورَ الغبي. مستحيل أن تكون قد جُعتَ مُجَدَّدًا. أكلتَ شريحتَي لحمٍ وقبلهما كمية كبيرة من حلوى الـ«باليز» وعدة قطع من البسكويت.

فليُصِبْك الملل إذًا. تستحقُّه. لا آسفُ بأي صورة.

سأفعل أموري بتمهُّل، تمامًا كما كنتُ أفعل قبل انتقالك إلى السكن في حمامي، وسأعود بعد انتهائي من تناوُل الحَساء وليس قبل ذلك بثانيةٍ واحدة، لتتعلم كيف يجب أن تُعامِل سيدة.

* * *

آسفةٌ يا عزيزي، لكنْ عجزتُ عن مقاومة الإغراء. حينما فتحتُ باب الثلاجة، كان أول ما عثرتُ عليه هو اللحم، ولم أتمكَّن من السيطرة على نفسي. هذه هي الحقيقة.

أكلتُ نصف قطعة. ليست شيئًا يُذكر.

انظر إلى المسألة من الجانب الآخر. تبقت لك قطعةٌ كاملة ونصف لهذه الليلة. لا تنفعل هكذا؛ فأنت تعرف أنني لم آكُل شرائح اللحم مُنذ سنوات.

ربما عَقدٍ أو عَقدَين. لا أعرف حقًّا. مُنذ فترةٍ أبدية.

لأنه مضر للجسم، وأنا أعتني بنفسي كما تعرف، لكني لم استطع المُقاوَمة هذه المرة. أُقسِم لك. كانت أقوى منِّي. شاهدتُ القطعة واضطُرِرت إلى تناول نصفها، وبيني وبينك كانت شهيةً للغاية.

لا تقلق. سبق أن قلت لك إنني أكلتُ نصف قطعة.

سأشتري لك المزيد غدًا. سأشتري لك كيلو إن شئت.

حسنًا. اتفقنا.

على أي حال، تبدو لي شديد الأنانية يا سانتي. انظر فقط إلى الجَلَبة التي صنعتَها فقط من أجل نصف قطعة. ها أنت تُظهِر معدنك. يجب أن أُخبِرك بأن قِطَع اللحم كانت فِكرَتي. ليست فقط الفكرة، فأنا من ذهبتُ للشراء وسددتُ ثمنها وخُضتُ مخاطرَ كثيرةً بعدها لطهوها. هي مِلكي. قمتُ بالكثير بسببها، وإذا رغبتُ فمن حقِّي أن آكُلها كلها دون إعطائك ولو قطعةً واحدةً أخرى.

بالطبع.

هي لك. لا تَخَف. لا يوجد أحدٌ هنا قد يُخرج الطعام مِن فمك. واشكُر الربَّ على حظك أنني لستُ أنانية مثلك.

شكرًا.

انظر إلى مدى طِيبَتي. أحضرتُ أربع قطع «بالميز» لتأكل شيئًا من الحلوى، لكن بسبب الجَلَبة التي أحدثتَها من أجل نصف قطعةٍ ملعونةٍ من اللحم، انْمحَت المسألة تمامًا من عقلي.

سأُمرِّرها لك.

سأُمرِّر لك ثلاث قِطَعٍ فقط. وآكُل واحدةً لتتعلم المُشارَكة مع الغير، وتصبح أكثر تضامُنًا، وليس بمثل هذه الأنانية.

ها هي قادمة.

أعتقد أنني أخللتُ كثيرًا بنظامي الغذائي، لكنَّ مسألة ضبط النفس صعبة؛ فهي شهية للغاية!

بينما كنتُ هنا بجانبك، في المطبخ، خطر لي أنك يجب أن تُدرِّب خيالك

بعضَ الشيء. أعتقد أنك تُعاني من مشكلاتٍ جَمَّةٍ في هذا الإطار.

لا ترى لُبَّ المسألة. ما زلتَ لا تفهم.

مشكلتُك أنك تخلطُ الخيالَ بالكذب. لستَ معتادًا على توظيف الخيال، بل سأتجرَّأ وأقول إنك لستَ مُعتادًا على استخدام رأسك بالمرة؛ لهذا خطر ليَ القيامُ معك بشيءٍ مُشابِه لِمَا كنتُ أفعله مُنذ رَدَحٍ من الزمن مع طَلَبتي في المدرسة. كنتُ أجعلهم يُغلِقون عيونهم وأقرأ لهم قصة. كانت مسألةً ممتعةً وتُسلِّي الأولاد كثيرًا دون معرفة أنهم يُدرِّبون خيالهم. لن أقرأ لك شيئًا، بل سأقُصُّ عليك الحوار الأخير الذي دار بين ديليتا وذلك الرجل المُمدَّد بجوار الطائرة.

لا، سأغير أسلوبي الآن. سأستخدم صوتًا رقيقًا ومُستثارًا حينما تتحدث أمي، وصوتًا غليظًا وحادًّا لحديث الرجل. أتحدَّث عن صوت رجلٍ لكنه أيضًا مُصابٌ بشِدَّة، وإذا كانت هناك حاجةٌ لأي تعليقٍ بخصوص المشهد في مجمله أو بأيٍّ منهما على وجه الخصوص، فهذه هي الحالة الوحيدة التي سأستخدم فيها صوتي وإن كان مع رفع النبرة.

هل فهمتَني؟

جميل. أَغلِق عينيك إذًا وحاول أن تتخيَّل.

توقَّفنا عندما دنتْ أمي عدة أمتارٍ من المكان الذي كان يَرقُد فيه الرجل وأخبرتْه أنها ستُحلِّق في ذلك الصباح كما اتفقا قبل قَبولِها دخولَ ذلك الفندق معه في لاريكوليتا، وأنه لو لم يخلّ بكلمتِه معها كرجلٍ مُحترمٍ لسارت الأمور بشكل مختلف، وأنها لم ترغب في وصولها إلى الحد الذي وصلتْ إليه، لكنَّه كان قطعًا المسؤولَ عما آلتْ إليه. هل أنت مستعد؟

من فضلك، حاول أن تُفكِّر فقط فيما أقصُّه عليك ولا شيء سواه،

واترك نفسك تنساب مع الخيال. هل أغلقتَ عينَيك؟

حسنًا، ها أنا أبدأ:

«- أحتاج إلى مساعدتِكِ. أفقدُ الكثيرَ من الدماء.

سأُساعدك. لا تَخَف، لكن قبلها عليك أن تَشرح لي كيف أُشغِّل مُحرِّك الطائرة. أعرفُ البقية. كلُّ ما يَنقصني هو أن تُخبِرني بهذه المسألة.

لا يُمكِنني يا ديليتا.

بل يُمكِنك.

أنا أُحتَضَر.

ابذل بعض الجهد. إذا لم تَبذُله، فلن أُساعِدك، وحينها ستموتُ بالفعل.

أنا أُحتَضَر.

كما تُحِب.

تستديرُ أمي حينها في صمتٍ مثاليٍّ وتنزع بعدها حِذاءها ذا الكعب المُدبَّب، والذي كانت ترتديه منذ الليلة السابقة المُنفِّرة لتصعد بعسر حتى كابينة قيادة الطائرة الصغيرة. تجلسُ على الفور، ومن موقعها في الأعلى تحاول إقناع الرجل:

بِتُّ مستعدة. هل ستبذُل ذلك الجهد الذي قد يُنقِذ حياتك؟ أم ستظلُّ تنتحب حتى آخر نقطةٍ في دَمِك؟

أنا في حالةٍ سيئة. ساعديني.

سأفعلها بعد أن تُخبِرني بكيفية تشغيل الـ«فارمان».

ديليتا. ديليتا.

كما تُحِبُّ بكلِّ تأكيد؛ ففي النهاية هي حياتُك وليستْ حياتي.

كان الصباح قد أشرق بالفعل وتسيدَت المشهدَ الشمسُ البرتقاليةُ العملاقة. حاولتْ أمي بقنوط الوصولَ إلى سبيلٍ لحلِّ تلك المهمَّة العويصة لفكِّ شفرة فائدة كلِّ واحدةٍ من الروافع والساعات الكثيرة الموجودة أمام عينَيها الخضراوَين.»

بالفعل. عيناها كانتا خضراوَين.

أترى؟ هذا هو الخيال الذي أُحدِّثك عنه!

لا، لا، لا، لم تكن شقراء بعينَين بلون السماء. أمي كانت سمراء بعينَين خضراوَين.

لا، لم تكن بهذا الطول. كان طولها عاديًّا؛ مترًا وخمسةً وستين سنتيمترًا.

كانت نحيفة، لكنَّ كلَّ شيءٍ في مكانه الصحيح وموزعٌ بشكلٍ جيد. أُحدِّثك عن نوعٍ من النحافة التي تعطي جمالًا للشكل.

بالغة الجمال. لم يَخُنكَ خيالُك هذه المرة.

لا، لن أسمح لك بهذا. ها أنت تبدأ مُجدَّدًا. تَحَلَّ ببعض الاحترام؛ فهي أمي في نهاية المطاف. لا يجب أن تنسى هذا.

كَوني تشجعتُ على إخبارك بحقيقة أمك لا يَعني أنه يحقُّ لك أن تَهمِس بأي تُرَّهاتٍ عنها. يجب أن تَفهم أنهما امرأتان مختلفتان بتعلُّمٍ مُغايِر وثقافةٍ مُغايِرة ووضعٍ اجتماعيٍّ مختلف. حياتان نسائيتان متعارضتان كليًّا.

أنت تخلط الأمورَ بسهولةٍ يا سانتي وتُربِكُني أيضًا؛ تقاطعني في اللحظة التي أمسك فيها بسرعة وثقة بالخيط الذي سأحكي لك الموضوع من خلاله. تفعل دومًا الشيء نفسه.

كفى!

ربما من الأفضلِ أن تتوقَّف عن الحماقات وتُخبرَني، هل كان إغلاقُ عينَيكَ وتركُ نَفسِك تنسابُ مع درجاتِ صوتيَ المختلفةِ ذا فائدةٍ أم لا؟

أنا أُنصِت لك. كُن واضحًا أكثرَ من هذا.

تخيَّلتَها شقراءَ بعينَين سماويتَين. تخيَّلتَها هكذا لأنك أسود صغير. هذا هو ما يَحدُث مع أشخاصٍ مثلك؛ ففي أعماق قلوبكم تفترضون أنَّ الجَمال هو كل ما يُعارض طبيعتكم، مثل بياض البشرة ولون العيون. تُحبُّون ما يَنقُصكم. وإن ركزتَ جيدًا، فربما يكون هذا هو السبب وراء خروجكم للسرقة أيضًا، لتحصلوا على ما لم توهبوه.

وهو؟

أترى؟ طويل وأشقر. مرةً أخرى...

كَونه رجلًا ثريًّا لا يعني أنه كان طويلًا وأشقر، بل على العكس، كان أسمر البشرة وأسود الشعر، ربما مثلك تقريبًا. قصير القامة وعريض الظهر. كان قبيحًا مثل القرد تقريبًا. أتتخيَّل الآن مدى الاشمئزاز الذي كانت ديليتا تشعر به في تلك الليلة السابقة من مُداعَبة حيوانٍ مثله لها؟ أمي عانت الأمَرَّين بكل تأكيد... المسكينة. ربما كان هذا هو السبب وراء سهولة ضغطها على زناد المسدس.

لا يا سانتي، أنت مُخطِئ.

أن يَخلُق خيالُك امرأةً لا تُشبه أمي أو ذَكرًا ليس به أي مَلمحٍ من الرجل الحقيقي لا يعني أن خيالَك لم يَنفعْك. فلْتنظُرْ فقط إلى كل ما تعلَّمتَه بخصوص نفسِك من المسألة.

على سبيل المثال، إنه رغم سواد بشرتك الشديد، فإن نموذجك المثالي للجمال والثراء مرتبطٌ بالشُّقر والعيون السماوية؛ رغم أنَّ الخيال لا يرتبط بهذا، باكتشاف المُثل النموذجية المرصَّعة داخل روحنا، بل بمعرفة الخيال نفسه. سيُساعِدك الخيالُ الممارس بصورةٍ صحيحةٍ على حلِّ كثير من الشؤون المُعقَّدة التي ستَظهر أمامك -وأقولها بكل يقين- على مرِّ السِّنين. لقد ساعدني هذا الأمرُ كثيرًا.

ترتبط المسألة فقط بأنني أعرف الأبطال. لو كانت أيَّ حكايةٍ أخرى، لَربما كان خيالي مختلفًا عمَّا كانا عليه على أرض الواقع.

لا، هذه ليست أكذوبة، بل طريقةٌ لرؤية العالم من قِبَلنا، بل ربما تكون أصدقَ طريقةٍ لرؤية العالم.

ستفهم ما أقوله لك يومًا ما.

أي نعم، لا تقلق.

تذكرتُ للتوِّ أنني لم أُمرِّر لك صور أبوَيَّ.

بمُجرَّد استيقاظي من القَيلولة سأجلبها لك.

نعم يا عزيزي، سأنامُ قَيلولتي. أنا مُنهَكة جدًّا.

توقَّف عن الشكوى. أنت تشكو من كلِّ شيء. تَذكَّر أنني خرجتُ اليوم مرتَين إلى الشارع، وبعدها أيضًا قمتُ بإعداد شرائح اللحم.

أرأيتَ الآن مدى بشاعة أن تكون وحيدًا؟ أنا قضيتُ حياتي كلَّها هكذا. أتمنَّى ألا يَحدُث لك نفسُ الشيء.

مُجرَّد قَيلولةٍ صغيرةٍ فقط لا غير.

لأستعيدَ قُوَّتي وأتمكَّن إذا سمحت لي -فانظر كيف تُبدع كلَّ مرةٍ في

مقاطعتي- من إنهاء حكاية أمي.

إلى اللقاء.

* * *

أعتقد أنني نمتُ أكثر مما ينبغي. يبدو أنَّ خروجي مرتَين للشارع أنهكني أكثرَ مما يجب، لا أظنك تُدرِك ضخامة الجهد الذي يَعنِيه السيرُ والسيرُ من أجل جلبِ شرائح اللحم بالنسبة لسيدة مثلي عُمرُها 93 عامًا.

لا، أنت لا تُدرِك شيئا حقًّا. أنت ناكر للجميل. أُعامِلك كمَلِكٍ ولستَ سوى مُجرم، وكلّما أتيحت لك الفرصة تشكو مِن حبسِك.

لن أُريَك الصور.

لأنك لا تستحقُّ أن تراها.

لا أعرف بالمثل إذا كنتُ سأُمرِّر لك مزيدًا من الـ«باليز» أو البسكويت، بل إنني لا أعرف حتى إن كنتُ سأُقدِّم لك شريحة اللحم والنصف. لا أعرف. يبدو أن الأمور يجب أن تَتغيَّر بيننا حتى تُغيِّر مِن طَبعِك. أنا أُحبُّ الناس بسرعة. هذه مشكلتي منذ الأبد وأنت تستغلُّ طِيبتي. أنت ماكرٌ وتعرف كيف تقوم بالمسألة.

لا، لم أَحلُم بأي كوابيس.

كنتُ أفكر فقط في علاقتنا ولديَّ انطباع أنها لا تسير بشكلٍ جيدٍ على الإطلاق، وأنني مُجدَّدًا أُخطئ في تصرُّفاتي.

نعم، يبدو أنني أمنحُك تسهيلاتٍ أكثرَ من اللازم. أنت مُجرَّد لصٍّ أسودَ صغير، وفوق كل هذا لا تتوقف عن الشكوى من حبسك، بل إنك لا تستغلُّ الوقت للتعلُّم مما أقوله.

لن أُقدِّم لك المزيد من قطع الـ«باليز».

وانظر عندك. لقد أكلتَ معجون الأسنان والصابون. انظر ربما تجد شيئًا آخر. ولماذا يَعنيني ما قد تأكله؟ افعل ما يحلو لك.

لأنك ناكر للجميل. أسودُ قذرٌ كل ما يُفكِّر فيه هو أنني أَحبسه، أو أن أمي كانت شريرةً للغاية مع هذا الرجل. لا تُدرِك أيًّا من الجهود المُضنِية التي بذلتُها لكي تُصبِح سعيدًا. أنا أَخرجتُك حرفيًّا من حياة الشوارع وبدأتُ في تربيتِك وأنت لا تظهر أي تقديرٍ تجاهي، وهكذا دائمًا مع شكواك وإهاناتك. غالبًا، أنا أول شخصٍ طوال حياتك اهتمَّ بمثل هذا الحماس بتربيتِك وتغذيتِك، لكنك لا تُقَدِّر، وعينَيك لا تريان سوى الشرور.

أعتقد أنهم مُحقُّون حين يقولون أنه ما من طريقة لتقويم حياتكم وتعليمكم العيش مع الآخرين، وإنكم قد ضِعتُم بالفعل ولا يمكن إنقاذكم، وإن ما تفتقرون إليه وأنتم في المهد لا يمكنكم أبدًا اكتسابه.

بكل تأكيد. أنت مثلًا افتقرتَ إلى حُبِّ أبوَيك. لنكُن صادقين: إنك حتى لم تحظَ بمهد.

أبواي مَنحاني بالفعل كلَّ الود، ومهدي كان جميلًا بالمناسبة.

لا، لا أُصدِّقك.

لم أَعُدْ قادرةً على التحمُّل.

ضِقت بك ذرعًا. سأذهب إلى المطبخ لتناوُل الشاي مع البسكويت. لو كنتُ مكانَك لاستغللتُ الوقتَ لأستعيدَ اتِّزاني.

* * *

لقد سمعتُك وأتمنى أن يكون ندمك حقيقيًّا لا إحدى أكاذيبك المعتادة.

حسنًا، أنا أُصدِّقك.

وشكرًا مرةً أخرى على مُناداتي «ليتا». توقفتَ عن مُناداتي هكذا مُنذ فترة. حينما تناديني «ليتا» أنسى كلَّ شيء. تُجرِّدني من دِفاعاتي وأُحبُّك كما لو كنتَ حفيدي.

انظر... أنا سعيدةٌ لدرجةِ أنني سأجلب لك صورَ أبوَيَّ، لكن مِن فضلك يا سانتي، اعتنِ بها؛ فهي الوحيدة الموجودة معي. لا تُوسِّخها، فإن حدث هذا فأنت لا تعرف ما الذي أنا قادرةٌ على فعله معك حينها، وأُقسِم على ما أقوله.

سأعود الآن.

ها هي معي.

أَقسِم لي أنك ستعتني بها كأنها كنز، إنها كذلك بالفعل. هي كنزي الوحيد. لا يوجد ما هو أَقيَم من هاتَين الصورتَين.

ها هما الصورتان.

و؟

ألن تُعلِّق بشيء؟

هل أكلَت القطةُ لسانَك؟

كما قلتُ لك سابقًا. أرأيت أنني لم أكذب عليك؟ أمي كانت بديعة الجمال. فاتنة.

سبق أن أخبرتك أيضًا. كان قبيحًا جدًّا ويُشبهني للغاية.

لا تتحامق يا سانتي. لستُ جميلة. لا تقُل هذا. لن أُصدِّق هذا. هل تظنُّ أنني لا أنظر في المرآة أبدًا.

لا، لم أكن جميلةً قط، حتى وأنا يافعة. كنت أُشبِه أبي للأسف. كانت خالتي ألثيرا لا تتوقَّف عن تكرار المسألة على مسامعي يومًا مباركًا تلو الآخر، وفي الأيام كلها، وحينها كانت ابنتاها تنظران بينهما وتضحكان وتقولان لي كم كان والدي قبيحًا.

كانتا تَسخَران مني.

لا تُصِر. إن واصلتَ فسأظنُّ أنك أيضًا تَسخرُ مني.

حسنًا، لقد رأيتَهما. أَعِدْهُما إليَّ الآن.

كيف يَخطُر لك التفكيرُ في هذا يا ناكرَ الجميل؟

كان عليَّ أن أُدرِك قبلها. لست سوى حُثالة إنسان، جيفة، قُمامة، ولم يكن عليّ انتظار أمر حسن من شخصٍ مثلك.

أنا المُذنِبة. أعترف. يا لي من حمقاء! كيف لم أُدرِك!

أنت مُستغِل وناكر للجميل مثل كل الرجال. الرجال هم أسوأ شرور البشرية قاطبةً.

نعم، بالطبع.

استغلَلتَني لأنني امرأةٌ حساسةٌ ولطيفةٌ وخَيِّرة وطيِّبة. هذا هو السبب. لماذا تَرغَب في الاحتفاظِ بهما؟

كيف تَجرُؤ على التفكير في شِراء شرائح اللحم أو الـ«بالميز» بالصورتَين الوحيدتَين لأبوَيَّ؟ أنت مجنون. لا تفكر في شيء مما تقول.

حسنًا. أنا مُنصِتة.

اتفقنا. قَبِلت. سأجلب لك قطع الـ«باليز» المتبقية في المطبخ وأنت ستُعيد ليَ الصورتَين، لكن كيف أعرف يا سانتي أنك هذه المرة ستحترم كلمتَك كرجلٍ شهم؟

وما رأيك في أن تُعطِيَني صورة أبي، وهي الأقلُّ أهميةً بالنسبة لي بين الاثنتَين، قبل أن أذهب لجلب الـ«باليز»؟ ستكون مبادرة لطيفة من طرفك، وسأتيقَّن هكذا من صِدق هذه الصفقة ونواياك الطيبة.

أنت حُثالة يا فتى.

كاذبٌ محترف.

على أي حالٍ سأجلب لك الـ«باليز». لا تَخف، لكنَّ الحقيقة باتت مُعلَنة: لن أُصدِّق كلمةً مما تَعِدُني به. أُكرِّرها لك: ولا كلمةً واحدة! لقد أحبطتَني مراتٍ عدةً في الوقت القصير الذي عِشناه معًا. لماذا يجب أن تكون المسألةُ مختلفةً هذه المرة.

لا أعرف. لا أُصدِّقك.

شيءٌ ما يُخبِرني أنك تخدعني.

* * *

اعذرني على تأخُّري كثيرًا. احتجتُ إلى البكاء وحيدة. لا أكاد أُصدِّق مدى انحراف البشر من الذكور بمثل هذه الصورة. أنتم ناكرون للجميل ومُستغِلون لأقصى درجةٍ ومُنحطُّون. أعرف أنَّ أقلَّ ما قد يهمُّك الآن هو الحصول على نصيحةٍ مني، وأنك لا تهتم الآن سوى بأكل كُلِّ قطع الـ«باليز» المُتبقِّية، لكن يجب أن تبذلَ جهدًا وتُنصِتَ لي لتَتغلَّب على ذاتِك وتُواجِه المصيرَ الرهيب الذي يَنتظركَ لاحقًا؛ لأن الذنب ليس فقط ذنب أمك أو

أبيك أو المكان المُنفِّر الذي كان نصيبُك أن تنشأ فيه. أنت أيضًا مُذنِب بصورةٍ ما؛ فعمرك أربعة عشر عامًا ويجب أن تَتمرَّد على هذا المصير وتُخبِر نفسك بأنك تَرغبُ في تغييره بمصيرٍ آخر، أو أن تُحاوِل فِعلها على الأقل. لا أعرف. مستقبلك يُؤلمني يا فتى.

أترى ما أقوله؟ كل ما يهمُّك هو الأكل، كأنك حيوان ولست شخصًا أو كائنًا عاقلًا.

سأُمرِّرها لك الآن.

لا يمكن أن تَمرَّ كلها معًا. ما الذي تقصده؟ أنا في الثالثة والتسعين وأفعل ما في استطاعتي. يجب أن تتحلَّى ببعض الصبر.

أنت مَيؤوس منك. مُجرَّد بهيمة.

انتهينا. ها هي معك. لقد مرَّرتُها كلَّها.

قليلة؟ هل تبدو لك قليلة؟ إنك لم تَرَ في حياتك كلِّها مثل هذا القدر من حلوى الـ«باليز» معًا يا بعوضة.

نعم، أنت مُجرَّد بعوضة.

لأنكَ كارثة مُتكامِلة الأركان. ليس لديك أيُّ وعيٍ حول شخصك وأصلك وفصلك، بل إنك ليس لديك أدنى فكرةٍ عن مكانك الآن.

أنت طُفيلي، مصَّاص للدماء، وهذه صفات البعوضة.

لا تضحك. لا أتحمل ضِحكتَك.

هل ستُعيد إليَّ الصورتَين؟

كنتُ أعرف!

لم أَثِقْ قطُّ في أنك ستُعيدُهما إليَّ. كنتُ أعرف أنك ستحتفظ بهما وتُوسِّخهما أو تقطعهما فقط لتؤذيني أو تحوّل حياتي إلى مُزحة.

أنت مثل كل الرجال. مثلهم جميعًا. مُجرَّد حُثالة.

ما هو العرض الذي تقول إنه لديك؟

أنت مجنون. مجنون تمامًا. إذا تركتُك تخرج، فستقتُلني في غضون دقيقتَين.

بالسِّكين.

وحتى إن لم يكن معك سِكين، فستقتلني بركلاتك أو بدَفعةٍ قوية. بأي طريقة. لا تتحامق يا فتى، أنا عجوزٌ ضعيفةٌ وسأعجز أن أدافع عن نفسي أمام قوتك المُتوحِّشة.

إياك حتى أن تَحلُم بهذا.

يرضيني أن أبقى بلا صور، لكنك ستظلُّ محبوسًا هنا إلى أبد الآبدين. لا تتحامق. لن يأتيَ أحدٌ لإنقاذِك، ولا أُفكِّر أن أفتح الباب لك حتى تُثبِت لي أنك تَحوَّلتَ إلى رجلٍ شهم، وهو الأمر الذي -لأصبحَ صادقةً معك- يتضح لي بمرور الوقت أن احتماليته ضعيفة. أقول لك هذا بعد الجهود المُضنِية التي بذلتها مُنذ صباح أمس، ولكن كما ترى، طبيعتُك عبارةٌ عن مصيبةٍ حقيقية.

كما يحلو لك.

احتفظ بهما.

سأجلسُ في المطبخِ هنا بِجانبِك. إذا غيَّرتَ رأيك في لحظةٍ ما، فاهتف لي وأنا سأسمعُك رغم ثقل سمعي. لا تقلق.

* * *

قل لي.

ماذا؟

ما الذي فعلتَه؟

نعم، أرى هذا المثلث الصغير، وإن كنتُ أعجز عن الانحناء كثيرًا. يا لَلوحشية. كيف أخطأتُ بهذه الطريقة معك!

لا، حتى ولو ضايقك الأمرُ لا يمكنني التوقُّف عن البكاء. أعجزُ عن التصديق: ثلاثة رجالٍ مرُّوا في حياتي والثلاثة كانوا لصوصًا. سرقوا كُلَّ كنوزي. أنتم -معشرَ الرجال- رُعْب، عقوبةٌ إلهية.

نعم ثلاثة.

الأول سرق عُذريَّتي وشرفي كامرأة، والثاني سرق مُجوهَراتي التي تركتْها لي أمي ومعها وهْمُ بناءِ عائلة، وأنت الثالث -وأقسم لك أنه لا يوجد آخرون- جئتَ لتَسرق منزلي وتمزّق الصورتَين الوحيدتَين اللتَين عشقتُهما وعبدتُهما طيلةَ ثلاثةٍ وتسعين عامًا.

لا، لم أتمكن بعدُ من الإمساكُ بها. يَصعُب عليَّ الانحناء كثيرًا.

الآن باتتْ بالفعل معي.

يا لك من بهيمة!

ما هي غايتُك من تلك الفعلة؟

أعرف ما هي بالطبع! كيف يَخطُر لك أنني أجهل ماهيَّتَها! هي الزاوية اليُمنى العُليا من صورة أبي.

أنت مُختَل. مَنزُوع الرُّوح.

بِتُّ لا أُومِنُ بوجودِ أي فرصةٍ لك في الخلاص. دعني أُخبِرك بهذا: الحكم صدر بِحقِّك. على الرغم من كونك طفلًا، فإنني مُتيقِّنة من أنَّ حُكْم الربِّ، سيدنا، قد صدر بِحقِّك لتَحترِق إلى الأبد بين نيران الجحيم.

لماذا أَقدمتَ على هذه الفعلة؟

بشكلٍ ما، أنت مُحِق. الوضع تغيَّر الآن. معك صوري ويُمكِنك أن تفعل بها ما يَحلو لك؛ تمزّقها على سبيل المثال كما فعلتَ للتَّو، لكن لا تَدَع الأمورَ تختلط في رأسك يا عزيزي. إنك لا تُسيطِر على شيء. لا سلطة لديك. لو كانت السُّلطة معك لكان الوضع مختلفًا عمّا هو عليه: كنتُ سأكون أنا في الداخل محبوسة، وأنت ستتمشَّى هنا بكل حُريةٍ وتُقرِّر، كما أفعل الآن، إن كنتَ ستُقدِّم لِيَ الطعام أم ستتركُني أموتُ من الجوع.

سأبكي هذه الصورةَ لوقتٍ طويل، ربما طيلةَ الوقت الذي يتبقَّى لي في هذه الحياة، تمامًا كما أنني ما زلت أبكي حتى يومِنا هذا ضياعَ عُذريَّتي أو سرقة مُجوهَراتِ أمي، لكن فلأُخبِرك كي تتَّضحَ لك المسألة تمامًا: إذا كانت الحقيقةُ تقول إن اسمي هو رافائيلا، فهي تقول أيضًا إنك ستموت عندك في الداخلِ من الجوع والوَحدة.

لا تكن مُنحرِفًا. لا تُنادِني «ليتا» الآن بالذات. لا تفعلها. أطلب منك هذا بإصرار. أرجوك... هكذا تُذكِّرني بلحظاتٍ مُحبَّبة مرتْ عليَّ خلال اليومين الماضيين؛ أوقاتٍ لم أُدرِك فيها للأسف نوعَ الوحشِ الذي أتعاملُ معه.

تفضَّل، سأسمعُك.

طيِّب. مُوافِقة.

لن أخسر شيئًا في الحقيقة بهذه المُحاولة، لكن أَعِدُك أن هذه ستكون المُحاولة الأخيرة. إذا لم تلتزم بكلمتِك هذه المرةَ فودِّع كلَّ ما تبقَّى في حياتك.

اخدَعْني مُجَدَّدًا وحينها لن أُمرِّر لك حتى فُتاتًا من الطعام.

أُقسِم لك يا فتى، أنت ما زلت لا تَعرفُني. لا تَفهَم ما أنا قادرةٌ على فِعله وستموت من الجوع في الداخل.

* * *

أولًا سأُمرِّر لك شريحة اللحم الكاملة.

والآن النصف المُتبقِّي. أصبحَتا معك...

حسنًا، سأمرر الآن دستة البسكويت كما طلبت. نتحدَّث عن دستةٍ. أليس كذلك؟ فمَن يدري، قد تأتي وتقول إنك طلبتَ كميةً أخرى وتستخدم هذه الحُجة لكيلا تُنفِّذ جانبك من الاتفاق!

ها هي.

جميل، الصفقة قد تمتْ فيما يتعلق بمسألة الطعام. ما يتبقَّى من ناحيتي هو أن أُواصِل قصَّ حكاية أمي.

هل يمكنك أن تُغلِق عينَيك بينما تأكل؟

متأكد؟

جميلٌ جدًّا. تَذكَّر أننا توقَّفنا حين رفضتْ فيها ديليتا مُساعَدة الرجل الذي رفض أن يَشرحَ لها قبلها كيف تُشغِّل مُحرِّك الطائرة.

سأُواصِل:

«على الرغم من استغراقها في دراسةٍ دقيقةٍ للأجهزة المُتنوِّعة الموجودة في الطائرة، تَمكَّنتْ ديليتا من سماع كلمة أو أنين ربما قادم من حيث كان جسد الرجل الجريح يرقد، وحينها أطلَّتْ برأسها البديع من القمرة

وأصرَّت في سؤالها:

هل كنت تُخاطِبني؟

ساعديني. أنا أُحتضَر.

قَبْلها أَخبِرني كيف أُشغِّل مُحرِّك المركبة الجوية.

ديليتا! من فضلك!

المسألةُ سهلة: إن كنتَ ترغب في البقاء على قيد الحياة، فأَخبِرني كيف أُشغِّلها وسأساعدك فورًا. لا يوجد ما هو أسهل من هذا. الأمر يعتمد عليكَ أنتَ وحدك.

الرافعة السوداء الصغيرة.

لم تتمكَّن ديليتا من تَمالُك أعصابها. انزلقتْ قطرة عرقٍ كبيرةٍ من مُنتصَف جبهتها الجميلة وظلت تنزلق عبْر أحد جانبَي أنفها لتتيه بعدها في النهاية عند شفتَيها المُكتنِزتَين. كل هذا التوتُّر والقلق لم يتركها تُفكِّر أو يسمح لها بالعثور على الرافعة السوداء الصغيرة التي كانت تبحث عنها بحماسٍ مُنقطِع النظير.

أصرَّت ديليتا في سؤالها بنوعٍ من الإحباط عبْر نافذة القُمرة الصغيرة:

أي رافعة؟ قل لي أي رافعة؟ المكان مليء بالرافعات السوداء الصغيرة!

الموجودة في اليسار بالأسفل.

آه! وجدتُها.

يجب أن تَسحبِيها نحو الخارج وأن تُبقي عليها في هذا الوضع لعدةِ ثوانٍ.

فعلتُها. والآن؟

أَديري المِرفَق الأحمر الصغير بجوار الرافعة.

تَخيَّل... قُربُها لهذا الحد من الطيران لم يَمنعْها من التفكير في أسخفِ الأمور. كانت قطعًا على بُعد خطوةٍ قصيرةٍ من النجاح الذي كلَّفها الكثير، لكنها شعرتْ أنها بكل كيانها حبيسة لتوتّر أعصابها، وأوجُه القُصور لديها.

أُديرُه إلى أين؟

لا أفهم!

إلى أين أُديرُ المِرفَق؟ إلى أيِّ اتجاه؟

نحو اليمين.

وعلى الفور هدر ضجيج مُحرِّك الـ«فارمان» الذي يُصِمُّ الآذان في صباح «لونغتشامبس» وانتقلتْ ديليتا من الضحك إلى البكاء في غضون أجزاءٍ من الثانية. وعجزتْ، بسبب الضجيج، وليس لأنها لم تكن ترغب في ذلك؛ عن سماع الكلمات المُلحَّة للرجل الذي كان يَرقُد فوق العُشب بالقُربِ من الطائرة وهو ينزفُ».

أوه! شكرًا.

لا أصّدق. صورة أبي. سألتقطُها الآن وحالًا وإن انكسرت فَخِذي.

أنت عسل يا سانتي.

أثبتَّ أخيرًا أن لك كلمة. سعيدةٌ كثيرًا بأنك لستَ وحشًا. أقصد تبيَّن أن لديك مشاعرَ في نهاية المطاف.

الآن وحالًا سألتقطُها.

شكرًا. شكرًا جزيلًا. باتت معي. سأُلصِقُها على الفور بالشريط مع

المثلث الصغير الذي قطعتَه. ستُصبِح جيدة. لا مشكلة. ستُصبِح كما كانت تقريبًا.

يا للقُبح!

لا، لا أتحدث عما فعلتَه، بل عن المسكين أبي.

اعذرني، ليس الأمر أني لا أودّ الاستماع لما تقوله، لكنني أحتاج أن ألصق الصورة الآن، لا أحب أن أراها ممزقة هكذا. سأعود في الحال، لن أتأخر.

* * *

ألصقتُها بشريط. باتتْ جيدةً جدًّا. لا أعرف إن كانت تبدو كحالتِها السابقة. ماذا تريد أن أقول لك؟ أعتقد أنك مُحِق. تبدو أكثر قِدمًا، أكثر استهلاكًا، أكثر تَعرُّضًا للَّمس باليد، بل وحتى أكثر حُبًّا. يُعجبُني كيف باتت، لكن الآن، هيا... قُصَّ عليَّ ما تخيَّلتَه. يهمُّني كثيرًا معرفة ما إذا كنتَ قد أحرزتَ تَقدُّمًا عن المرة السابقة، بل إنني حتى أوشكتُ على قول «الحصة السابقة».

لا، هذا غير ممكن.

هل تُدرِك أنك دائم الخِداع؟ تصرفتَ جيدًا وأعدتَ إليَّ صورة أبي، وعلى الفور شعرت بأنني أستطيع الثقة بك مُجدَّدًا، وأنني قد استعدتُ صديقًا، بل وأصبحت مُستعِدةً للخروج لشراء شرائح اللحم الرقيقة لك مُجدَّدًا، لكنك على الرغم من هذا كنتَ تخدعني في نفس الوقت في مسألة عينَيك.

اتفاقُنا كان أن تُغلِق عينَيك وتترك ذاتَك لتنسابَ مع الخيالِ عبْر نبراتِ صوتي ودرجاته والكلمات الدقيقة التي اخترتُها بعنايةٍ لتأطير المشهد. لا يُمكِنك أن تَفعلَ الأمورَ كما يَحلو لك. لا، التعلم يتعلَّق بالمُراكمة والتَّكرار،

ونحن معشرَ المُدرِّسات -أو على الأقل المُدرِّسات الكبيرات في السن مثلي، فلا أعرف ما الذي يَحدُث الآن- نعرف أنَّ الأمورَ تسيرُ هكذا. يجب أن تُوظِّف رغبتَك بصورةٍ أكبر يا فتى. كُن سهل المِراسِ بعضَ الشيء. لا يصحُّ أن تعيش كالغاوتشو طيلة حياتك ووقتك.

لا، لن أبدأ مُجدَّدًا في مسألة الغاوتشو. لا تقلق، لكن دعني أُكرِّر على مَسامِعِك ضرورةَ أن تبذل جهدًا، وتتفهّم أنه لا يمكنك القيام بكل ما يَحلو لك؛ فبهذه الطريقة لن تتعلَّم شيئًا عن أيِّ شيء، بل فقط ما يهمُّك. التعلُّم أوسع من اهتماماتك الشخصية، ويجب أن تعرف شؤونًا أخرى كثيرةً قد يبدو من مَظهرِها أنها لا تهمُّ أو بدون فائدة.

ليس بيدي حيلة. ما أقوله لك هو الواقع، لكنك لا تعرفه بكل تأكيد؛ لأن أبوَيك لم يُرسِلاك قطُّ إلى المدرسة.

حسنًا.

أعذرُك بخصوص ما قلتَه للتوِّ عن أمي. هي حقيقة. كانت جميلةً لدرجة أنني أتفهَّم ما قلتَه، خاصةً وأن الصورة بين يديك. لم يكن هناك بُدٌّ من أن تفتح عينَيك عوضًا عن تخيُّل هذه المرأة البعيدة وهي تُكافِح لفهم أجهزةٍ لا نهاية لها أمام عينَيها الخضراوَين.

لأن الصورة بالأبيض والأسود، وفي ذلك الزمن لم تكن هناك صور مُلوَّنة. نحن نتحدَّث عن قرنٍ من الزمان يا سانتي.

لا تُصِرَّ على هذه المسألة. كانتا خضراوَين وليستا بلون السماء. أُقسِم لك على هذا يا سانتي.

حسنًا، لا تنفعل.

هنا معك حق. إذا كنتَ تتخيَّل عينَيها سماويتَين فهما سماويتان وانتهينا!

لا، هذا غير صحيح. ديليتا لم تكن شريرة. اضطُرَّت إلى فعل ذلك بهذه الطريقة. لا تَنسَ أنها كانت امرأة، وفوق هذا كانت وحيدة، وأن كل ما تمنَّته في حياتها هو الطيران، وأنه لو خطر ببال الرجل ألا يُخبِرها كيف تُشغِّل المحرك، لربما خسرَت إلى الأبدِ الفرصةَ الوحيدةَ التي كانت ستحظى بها على مرِّ السنين.

واضحة كانت خطورة الوضع، والمسكينة تعاملَتْ معه على قدرِ استطاعتِها. كانت أمي طيِّبةً للغاية في أعماقها. الشرير كان هو ذلك الرجل. إياك أن تنسى هذا أبدًا مهما تخيلتَه الآن جريحًا ينزف الدماء ويطلب العون كقطٍّ مدلل. هذا الرجل لم يكن سوى حُثالةٍ حقيقية: ذَكَر مُتوحِّش كان قد استغل ديليتا قَبْلها بعدة ساعات.

كيف لك أن تتخيَّله عاشقًا؟

ما تقوله الآن مُصيبةٌ يا سانتي. لو كان عاشقًا، لما فتح أزرارَ قميصِها بيدَين غليظتَين. كان سيعثُرُ على طريقةٍ أخرى لفعلها.

وأنت؟ هل تعرف أكثر منِّي عن الحُب؟ هل كنتَ ذات مرةٍ في حياتك مع امرأة؟

لكن إذا كان كلُّ عُمرِك هو أربعة عشر عامًا! لا تدفعني للضحك. وكيف حدث أنْ رافقتَ فتاتَين؟

لا أُصدِّقك.

مع أختك؟!

هذا لا يصح. لا، لا.

ما تقولُه أمرٌ مُرعِب. أرفضُ قَبولَه. هذا تَوحُّش. ما تقوله بخصوص

تلك الفتاةِ الأخرى الصغيرةِ سأتغاضى عنه، لكنْ مع أختك! هذا أمر يُحرِّمه الربُّ ويُجرِّمه القانون، بل وضد قواعد المجتمع الأساسية.

هذا لا يصح!

هذا ليس مُبرِّرًا. ما عَلاقةُ ما تَقولُه بالأمر؟ كنتُ أنام في نفس الغُرفةِ مع ابنتَي خالتي، وعلى الرغم من هذا كانت كل واحدةٍ تظلُّ في فِراشِها ولم تَكُن تقفزُ من هنا إلى هناك كضفدع.

مَراتِب أو أَسِرَّة. كلُّها سواسية.

كنتَ تنام أنت وأختُك على نفسِ المرتبة؟ وسمح أبواك بهذا؟

دائمًا يوجد مكانٌ إضافي...

طيب، حسنًا. أُصدِّقك في مسألةِ عدمِ وُجودِ مكان، لكن ما فعله أبواك لن يَغفِرَه الرب. اعذرني، لكنهما حُثالة البشر.

لا تُدافِع عنهما. لا يوجد دفاعٌ يَصلُح في حالتِهما.

الأمرُ مُختلِف. اسمع لما أقوله. أمي كانت طيِّبةً وبصحةٍ جيدة، وكانت تَرغَب في الطيران. أبواك ليسا سوى كسولين مَعدومَي الأخلاق، وحتى إن كان يُضايقُك سماعُ هذا، فهما مُجرَّد خَسيسَين.

ليستْ مسألةَ فُقراءَ وأغنياء. هذا شأنٌ إنسانيٌّ صِرْف. الفرقُ الهائل بين أن تكون سليمًا أو مريضًا، واعذرني حينما أقولها لك مرةً أخرى: أبواك يا عزيزي مريضان!

كيف تتجرَّأ على قولِها؟

اسحب ما قلتَه الآن. آمرُك بأن تفعلها الآن؛ فأنا رغم أن لديّ أسباب أكثر منك لم أتجرَّأ قطُّ على وصف أمِّك بالساقطة، وأنا لا تنقصني أسبابٌ

لأدعُوَها بهذه الكلمة.

اخرس ولو لمرةٍ واحدةٍ من فضلك، واعتذرْ كما يجب.

حسنًا، هكذا أفضل. أُسامِحك.

سأتظاهرُ بأنني لم أسمعْ قطُّ ما قلتَه للتو، لكن لا تَفعلْها مُجدَّدًا. إياك، لأنني حينها لن أُسامِحك. ربما قد أتغاضى مرة، لكن ليس مرتين.

لِمَ لا نتوقَّف عن التُّرَّهات وتُعيدُ إليَّ صورة أمي، ونَعود صديقَين كما كنا من قبل؟

طيِّب، فكِّر في المسألة. خُذ وقتك. لا داعيَ للتسرُّع. سأذهب الآن لأُعِدَّ الحَساء، وبعدها سأُشاهِد نشرةَ الثامنة. حينما أنتهي سآتي لزيارتك ونتحدَّث عن المسألة.

لا يهم.

لا تتوقَّع أن أُغيِّر عاداتي الأساسية فقط لأنك تعيش في حمَّام شقَّتي.

لا، لن أفعل ما تطلبه.

مُشاهُدة نشرة أخبار الثامنة مهمة بالنسبة لي. هي سبيلي الوحيد لمعرفةِ ما الذي يحدث في العالم. طريقتي الوحيدة لكيلا أنعزلَ، ولأبقى مطلعة على يحدُث في الشوارع.

لا أعتقد أنك ستتجرَّأ على تمزيقِها.

لا، لا أُصدِّقك.

بات بينك وبين ديليتا نوعٌ من الود. أتظنُّ أنني لم ألحظ هذا. رغم وصفك لها بطريقة بائسة منذ دقائق، أعتقد أنه لا يقول هذه الترّهات إلا من ينجذب إليه، إنها تعني شيئًا بالنسبة لك.

كما أنك لا تعرف نهاية القصة. إذا مزَّقتَها فستَعجزُ عن مُساعَدة نفسِك بالصورةِ بينما تسمعُ روايتي.

لا، لن تَفعلَها. أنت تعرفُ هذا أفضل مني.

حينما تنتهي النشرةُ سنُواصِل. وإلا فلن أحظى بوقتٍ كافٍ لتجهيز الحَساء.

إلى اللقاء.

* * *

جلبتُ لك قِطَع البسكويت الأربع المتبقية لكيلا تَمَلَّ كثيرًا. سأُمرِّرها لك الآن.

لا، لم تتبقَّ قِطع «بالميز».

الشيء الوحيد الذي يُمكِنني تقديمُه لك هو الرقائق.

طيب، لكن سأجلبها لك بعد النشرة. لا يُمكِنني أن أجلبها الآن. أنا على وشكِ الانتهاء من إعداد الحَساء. كَلِ البسكويت ريثما أنتهي وخُذ دُشًّا بعدها كما فعلتَ أمس.

لن تطير. لا تخف.

استحِم. لا تكن قذرًا، لكنْ من فضلك يا سانتي، أرجوك بشدةٍ ألا تُبلِّل الصورة.

توقَّف عن المُزاح.

* * *

عثروا على فتاتَين على جانب الطريق بعد قَتلِهما. هو حيٌّ يقع جنوب أو غرب المدينة. لا أدري حقًّا؛ فأنا لا أعرف هذه المنطقة. كان عُمر إحداهما ستة عشر عامًا، والأخرى تكبرُها بعام. هما يافعتان! يا لَلوحشية! العالَم بات مُرعبًا. لم يَعُد المرءُ قادرًا بالفعل على الخروج بهدوءٍ ولا حتى عند باب الشارع. أيُّ مستقبلٍ أكثر سوادًا ينتظرُكم يا فتى! أنا حزينةٌ جدًّا عليكم. أقصد الشباب؛ فأنا لم يتبقّ لي وقتٌ طويل. لقد عِشتُ نصيبي بالفعل، أما أنتم فيا لكم من مساكين ويا لها من كارثة.

على ما يبدو، وَفقًا لما قالتْه زميلتهما في المدرسة، تغيَّبَت الفتاتان عن الفصل للذهاب إلى مكتب ما، نشر إعلانًا في الجريدة يُقدِّم فرصةً للعمل كعارضة، ولم تعودا بعدها قطُّ إلى المنزل. تشير الشكوك كلها نحو هؤلاء الذين نشروا الإعلان، لأن الشرطة ذهبت للمكان ولم تجد أحدًا. كان خاويًا، أخذوا كل شيء معهم، لم يتركوا مقعدًا ولا ورقة، لا شيء على الإطلاق. لابد أن هؤلاء السفاحين هم من فعلوها.

مذيع النشرة -وهو رجلٌ جادٌّ ومحترم للغاية- تَساءل عن نشر عِصابةٍ من المجرمين بكل سهولةٍ لإعلانٍ في صحيفةٍ وعدم وجود رقيب على الموضوع، وأيضًا عن جهل الآباء المُطلَق لما فعلتْه البِنتان، وعدم اتصال المدرسة بمنزل الطالبتَين للاستعلام عن سبب غيابهما، سواء كان مرضًا أو غيره. أسئلةٌ كثيرةٌ دون إجابات. هكذا أنهى ما قاله. لا أعتقد أنهم سيعثرون على هذه الإجابات أبدًا. هذه هي إضافتي على ما قاله. أعتقد أن وقتَ الأسئلة قد تأخَّر بالفعل، وأن العالم بات عَفِنًا لدرجةٍ لا تكفي معها النوايا الطيِّبة لإنقاذِه. تأخَّر وقتُ الأسئلة كثيرًا. كان يجبُ أن تُطرَح هذه الأسئلة سابقًا، حينما بدأت العاداتُ والتقاليدُ في التراخي. لا يمكن فعلُ أي شيءٍ الآن. الفتيات يَرغبْنَ فقط في الشُّهرةِ وإظهار عُريِهنَّ. لم يَعُد أحدٌ يخشى شيئًا؛

الكل يَرغبُ في المُتعةِ والتسليةِ فقط. يأسفون فقط حينما تَحدُث مأساةٌ مثل تلك التي حدثتْ للتو. إنها مُصيبة.

اسمعوا ما يقوله!

هل تهتمُّ حتى بما قصصتُه عليك؟

أرأيت؟ لهذا وصلنا إلى ما وصلنا إليه؛ لا أحد يُلقي بالًا لما يَحدُث لغَيرِه. ضاعتْ كل القِيَم.

نعم، سأُحضِرُها لك الآن. لقد نسيت. وكيف لي أن أتذكَّر بعد كلِّ ما شاهدتُه في التلفاز. الوضع مُحزِن للغاية. أَذهبُ في ليالٍ كثيرةٍ إلى الفراش وأنا أبكي مما أراه في نشرة الأخبار. اليومَ لم يَحدُث هذا لأنك موجود، وأيضًا لأنني كنتُ في حاجةٍ لآتيَ وأقصَّ ما حدث عليك لأنك محبوسٌ ولا يُمكِنك مُشاهَدة التلفاز والاطِّلاع على أيِّ شيء. يجبُ على المرءِ متابعةُ ما يَحدُث يا فتى. هذا حق، بل إنه واجب أيضًا.

حسنًا، سأذهب الآن. لا داعيَ لأنْ تتذمرَ هكذا. يبدو أن كلامي معك قد أصابك بالملل.

هل تحمَّمْت؟

جيد. أنا سعيدة. لكن هل دعكتَ نفسَك جيدًا بالصابون؟

اعذرني، نسيت أنكَ قد أكلتَ الصابون، والآن أدركتُ أيضًا أنك لا تَغسلُ أسنانك.

لا تَغسلُها أبدًا؟

يا لَلمُصيبة!

نعم! هو أمرٌ مهمٌّ يا عزيزي. سيمتلئ فمك بالسوس، وبعد سنوات

ستسقُط ضروسك ولن تتمكَّن من أكلِ شيءٍ سوى الحَساء والبيوريه. ستتذكَّر ما أقوله لك في غضون سنوات.

طيب، طيب. كنت فقط أُقدِّم لك النصيحة. سأَجلِبها لك الآن.

ها هي.

كانت ستَّ قطع. ما الذي ترغب فيه؟

لا، لن أُقدِّم لك المزيد. قضيتَ اليوم كلَّه وأنت تأكل. توقَّف قليلًا؛ ففوقَ كل هذا لا يُمكِنك ممارسةُ الرياضة وأنت في الداخل، بل حتى المَشيَ ليس ممكنًا. إن لم تُسيطِر على نفسِك فستكون سمينًا كبقرةٍ حينما تَخرُج.

لا تُصِر. لن أُقدِّم لك المزيد.

بل هو التوتُّر يا عزيزي. لا تقلق. غدًا سأشتري لك المزيد من شرائح اللحم.

نعم، وأيضًا المزيد من الـ«باليز» والبسكويت وكلِّ ما تُحبُّه... لكن ما هي مشكلتُك مع الطعام يا فتى! تبدو كحيوان. لستُ راضيةً بالمرة عن كونك هكذا. يجب أن تُوظِّف وقتك في الحبس بصورةٍ أفضل، بالتفكير في أمورٍ أكثر رُوحانية، في مستقبلك، في الطفرة التي ستطرأُ على حياتِك بدايةً من الآن. لن أسمحَ لك بأن تَخرُج من هنا مُجدَّدًا لكي تسرق. لا، لن يحدث هذا تحت أي ظرف. ستَخرُج من منزلي فتًى آخرَ مختلفًا عن ذلك الذي دخل. أُؤكِّد لك هذا. ستكون إنسانًا طيِّبًا. ستذهبُ إلى المدرسة وستحصل على عمل، أو على الأقل وظيفة مؤقتة، وعندما يحين الوقت المناسب، ربما ستكون لك فتاة جيدة كما يصحُّ ويجب.

لا يا سانتي. لن تفعل شيئًا مع أختِك مرةً أخرى. لن تراها مُجدَّدًا. هذا شذوذٌ وانحراف. عليك نسيان هذا الموضوع.

وكيف لك أن تُحبَّها؟!

لا تكن بهيمة. لا يمكنك أن تُحبَّها. هي أختُك ومن لحمِك ودمِك.

لا تتفوَّه بحماقات.

كفى!

لا أرغبُ في الإنصاتِ إليك ولو لدقيقةٍ واحدة ما دُمتَ تتحدَّث بهذه الطريقة.

لا وألف لا، لن تذهب لإنقاذها من المنزل الذي أخذوها إليه. لقد بدأتْ حياةً جديدةً وحصلتْ على عملٍ ولديها فرصةٌ ممتازة مع عائلةٍ محترمة. لا تُضايقْها مُجدَّدًا من فضلك. إذا كنتَ تُحبُّها حقًّا كما تقول فيجب أن تتركها تصنعُ بنفسِها طريقَها في هذه الحياة.

لا.

ستفعل ما سأقوله لك: ستبحث عن فتاةٍ طيبة، فتاةٍ من حيِّك السكني، فتاة جميلة ولطيفة وتُجيدُ الطبخ ونظيفة وتُحبُّ الأولاد. يجب أن تُوجَد واحدة بهذه المواصفات. أنا مُتأكِّدة، حتى ولو كان الحيُّ الذي تسكن فيه مقلب قُمامة.

يجب أن تُوجَد فتاةٌ جيدة. إذا بحثتَ عنها فستعثُر عليها. فتاة يمكنك أن تَبنيَ معها عائلة. إذا سمحتَ لي، فسأُساعِدك. عيني جيدةٌ في هذه الأمور، بل إنه يُمكِنُكما القدومُ للعَيش هنا معي بلا أدنى مشكلة. الشقة كبيرة بصورةٍ تتسع للجميع.

انسَ أختك. يبدو أنَّ لديك فكرةً ثابتة. بهذه الطريقةِ عليك ألا تَحلُم بأن أُساعِدك، بل إنني هكذا لن أَترُكَك حتى تَخرُج من هنا.

من فضلك يا سانتي، لا تتفوَّه بمثل هذه الأشياء.

كانت محظوظةً في مثل هذه الظروف؛ فعبْر هذه العائلة ستَحصُل على المالِ وستتعلَّم أيضًا أن كلَّ العائلات ليست مثل عائلتك. لن تتأخَّر كثيرًا في إدراك أنها ستَحصُل على مستقبلٍ أفضلَ من ذلك الذي كان ينتظرها.

ما حدث كان خطًا. لا تَضحكْ على نفسك. كل شخصٍ قد يُخطئُ في حياته. أنا أيضًا. عدم توفيقي في تلك المرة لا يعني أنني ليس لديَّ عين جيدة. أُكرِّر لك، إن عيني جيدة في مسألة معرفة ماهية الناس.

أنت بلا روح. تَسخرُ من أشدِّ الأمور حُزنًا.

لقد مللت.

أُفضِّل الذهاب للنوم. لقد تأخَّر الوقت، وفي الحقيقةِ كان يومي طويلًا ومليئًا بالعمل. لا أستطيع البقاء. أُؤكِّد لك هذا. ظَلِلتُ مستيقظةً فقط لتشعر ببعض الصُّحبة ولكيلا تبقى وحيدًا للغاية، لكن لا. يبدو أن كل ما يهمُّ السيدَ الموجودَ معي هو طلبُ الطعام والتحدُّث بصورةٍ غير لائقةٍ عن أختِه أو ماضيَّ.

لا، لا تأتِ الآن لي بمثل هذه الأمور.

لا أُصدِّقك. لن تُمزِّق أي صورة. كلانا يَعرِف أن هذا لن يَحدُث.

ستُعيدُها إليَّ في حينه. ليس لديَّ أدنى شك.

أنت تعرف أنك لا تُخيفُني.

لا، أُقسِم لك. أنت لا تُخيفُني على الإطلاق. لديَّ قناعةٌ تامة بأنك لن تُمزِّقها وأنك حتى لن تبللها بالماء.

من الأفضلِ أن تَفرش المناشفَ على الأرضية، ولترقد ونُنهِ المسألة.

فلتهدأ وتُفكّر وتَنَم. نم لفترةٍ طويلة، فهذا في مصلحتك.

تُصبحُ على خير.

السبت، 1 ديسمبر

الجوُّ اليومَ أحرُّ من أمسِ يا فتى. ركِّز في مدى سُطوع الشمس ونحن ما زلنا في السابعة والنصف صباحًا.

صحيح. معك حق.

لكنك أوشكتَ على الخروج من هنا، ولحين حدوث هذا، اسمح لي أن أَحكيَ لك لتبقى على اطِّلاع بكيفية سير الأمور هنا في الخارج.

هل نمتَ جيدًا؟

يُسعدُني أنك نمتَ جيدًا.

نمتُ أكثرَ بكثيرٍ من المعتاد. انظر إلى الساعة وستعرف، لكني كنت مُنهَكة للغاية بسبب خروجي مرتَين أمس، هذا كثيرٌ بالنسبة لي، لكن بكل تأكيدٍ كان هذا لأجل خاطرك.

هل مزقتَ صورة ديليتا؟

أرأيتَ؟ كنتُ أعرف؛ ففي أعماقك وعلى الرغم من إنكارك، لديَّ انطباعٌ قوي أنك بِتَّ تُكِنُّ لها مَعزَّة خاصة، أو أنك على الأقل بدأتَ تُدرِك التقلُّباتِ التي قد تَمرُّ بها أيُّ امرأةٍ لتنجحَ في القيام بشيءٍ تُحبُّه فعلًا في عالم الرجال.

لا أعرف.

لا أظن.

نعم، أَعدُك بأنني اليومَ على أقصى تقديرٍ سأُنهي قصةَ أمي. لن نتخطَّى اليوم. فات الكثيرُ وما بقيَ إلا القليل، لكن يجبُ أن تبذلَ أنت الآخر جهدًا، وألا تتصرف بحماقةٍ في كل مرةٍ أنطلقُ في السرد.

أتَعدُني بهذا؟

حسنًا، أُصدِّق كلمتك.

مِزاجُك أفضل اليوم. تبدو يَقِظًا. يُلحَظ على صوتك أنك مُقبِل على الحياةِ أكثرَ من أمس.

يبدو لي كأمرٍ جيد. أُهنِّئك.

إذًا آمُل أن نَقضيَ يومًا لطيفًا معًا وأن يتوقَّف كلٌّ منا عن إساءة معاملة الآخر والتفوُّه بكلماتٍ سيئةٍ وسوقيةٍ لننجحَ في استغلال الفُرصةِ التي قدَّمها لنا الربُّ بلقائنا. المقاصد الإلهية هكذا: غريبة، بل وحتى غير مفهومةٍ أحيانًا، لكنَّ رغبةَ الربِّ هي أن يعرف كلٌّ منا الآخر. لا تنسَ هذا أبدًا. تسير الأمور هكذا دومًا. استمتِع بها.

بالطبع.

يُقرِّر الربُّ دومًا هذه المسائل. لا وجودَ لشيءٍ اسمه الصُّدفة. سواءٌ تَعلَّق الأمر بهذا أو ذاك، فالربُّ كان يُدرِك أنك أنتَ وأنا كنا في حاجةٍ متساويةٍ لتَعارُفنا، وحينها دبَّر ما دبَّره من ترتيبات.

الربُّ يرى كلَّ شيء، حتى ولو لم تُصدِّق، ووَفقًا لما يراه وما يعلمه، يُقرِّر ما هو أكثر مُلاءمةً لكل امرئٍ منا في كل لحظةٍ من حياتنا.

نعم، لا تتحامق.

أنا ألتزم بوعودي يا عزيزي. أنا امرأةٌ تلتزم بكلمتها.

سأخرُج بعد قليلٍ وأشتري شرائح اللحم. كيلو كاملًا. سأشتريه لك اليوم لكيلا يتكرَّر ما حدث أمس. الحقيقة أنني لم أعرِف أن فتى في سنك يحتاج الطعام بهذه الصورة، لم أحظَ قطُّ بأبناءٍ ولا حتى بأبناء أخٍ أو أخت. المهم... هل كيلو كافٍ لك؟

حسنًا. سأجلب لك أيضًا حلوى الـ«بالميز» وبعض البسكويت.

صحيح. كانت قطع الـ«بالميز» شهية.

لا تسخر من الرب؛ فهو يرغبُ بكل تأكيدٍ أن أخرج إلى الشارع لأشتريَ لك كل هذا. هو بالطبع من منحني القوة لتنفيذ المسألة على الرغم من توعُّكي، لكن من فضلك اتركني الآن في سلام لأُعِدَّ لنفسي كوبًا من الشاي. يجب أن أتناول فطوري. إذا لم أفطر، فلن أتمكَّن من الخروج لجلب المشتريات أيًّا كانت المساعدة التي سيُقدِّمها ليَ الرب. يجب أن تساعد الربَّ أيضًا. أنا عجوزٌ وهو أمر ملحوظ، وليس فقط في مدى إنهاك الروح، بل أيضًا -وعلى وجه الخصوص- في متاعب الجسد. انظر كم ساعة اضطررت للنوم الليلة الماضية لأتعافى. مأساة! لم يَحدُث هذا الأمر لي منذ سنوات؛ أقصد النوم المتواصل كلّ هذه الساعات، دفعة واحدة، وعدم سماع أي ضجيجٍ قد يُؤرِّقني.

مَن هم في عمري ينامون أقل يا فتى.

هذا لأنك يافع.

يُصبح رأسُ المرء مُحمَّلًا بالكثير في الثالثة والتسعين؛ مُحمَّلًا لدرجة أن النوم يُصبح عسيرًا. تأتي إليه ذكريات لا نهائية، كمٌّ هائل من الأفكار حول الماضي. النوم في سِني مسألةٌ عويصة؛ فأي صوت تافه يتعاظَم ويصِمُّ الآذان. أنهكتُ نفسي كثيرًا أمسِ بكل تأكيد.

الرقائق هي كل ما يتبقَّى لي. سأجلبها لك إن شئت.

طيِّب، لكن بعد الانتهاء من فطوري، ولْتشغلْ نفسك بعدها بأي شيءٍ حتى أذهب إلى الجزَّار والخبَّاز.

ها هي الرقائق.

نعم، خمس. كم قطعة كنتَ تريدها؟

لا، إن طاوعتُك، فلن ترغب بعدها في تناوُل قِطَع اللحم.

تعامَل مع جوعك بهذه القِطَع.

سأذهب. لقد تأخَّرت، وإن كنتُ أريد قبل ذهابي أن أُوجِّه لك سؤالًا صغيرًا: ما رأيك أن تُعيدَ إليَّ صورة ديليتا؟

حسنًا، طيب. كما تحب.

لا تنفعل. إلى اللقاء بعد قليل.

* * *

ابتعتُ لك كلَّ شيء: كيلو من شرائح اللحم وأربع قطع «بالميز» وأربع بسكويتات.

هل تبدو لك كميةً مناسبة؟

جميل، أسعدتَني.

ابتعتُ أيضًا أربعة كيلوجرامات من الرقائق لإعادة الوعاء لما كان عليه... ممتلئًا. لا أعرف. الأمر أقوى منِّي. يجب أن أراه دومًا ممتلئًا حتى قِمَّته، وإلا فسأكتئب ويَتعكَّر مِزاجي. هي حماقة. أعرف هذا بالفعل، لكن إذا لم أرَ الوعاء ممتلئًا، ينتابُني فجأةً انطباعٌ بأنني سأموتُ من الجوعِ في أي لحظة.

صحيح. جلبتُ لك مفاجأةً أيضًا.

لا، ستعرفها فقط إذا عثرتُ على طريقةٍ لتمريرها لك.

أُفضِّل ألا أكشفَ لك شيئًا. أظنُّ أن إيجاد طريقة لتمريرها من أسفل عقب البابِ لن يكون سهلًا.

لا، لا تُصِر. إذا قلت لك ما هي وبعدها لم أتمكَّن من تقديمها لك فستفتقدُها. من الأفضل ألا أُخبِرك. افهم! عليك نسيان المفاجأة وقل لي الآن ما الذي ترغب في أن أجلبه لك في البداية.

حسنًا، لكن قبل أن أذهبَ لأجلبها أرغب في أن أحكيَ لك إحساسًا غريبًا راوَدَني. أتعرف؟ أعتقد أنني قلتُ لك في لحظةٍ ما إن الخروج للتبضُّع تمرينٌ متكامل، بدنيًا وذهنيًا، وأحد أنواع الإلهاء أيضًا، لكن هذه المرة كان الأمر مختلفًا. كان مغايرًا أمسِ أيضًا، حينما خرجتُ في المرة الثانية، لكن اليوم المسألة أغرب. لم أُكرِّر كببغاء أسماءَ الأشياء الموجودة أمامي، ولم أَعُدّ خُطواتي، وهو أمر أفعله دومًا لأنني أُحبُّ معرفة كم مارست من الرياضة. لم أفعل اليوم ما أفعله دومًا، وكذلك في خروجي الثاني أمس.

نعم، أَعُدُّ خُطواتي. أين المشكلة؟

هي عادة. لا أعرف. أفترض أن لك عاداتِك أنت أيضًا. عاداتك أنت وحدَك. لا أظن أنه أمرٌ سيئ أو أنني مجنونة. هي مسألة معي منذ الصِّغر، وإن اقتصر ما فعلتُه حينها على عدِّ درجات السُّلَّم فقط.

ألم أقل لك إن لديك عاداتِك! كنتُ أعرف!

للجميع عاداتهم. ربما لا يَقدِرون على البَوح بها بسبب عدم تَحمُّسِهم أو خَجلِهم منها، لكن بيننا كصديقَين يُمكِننا أن نَحكِيَ هذه الخصوصيات. قل لي: أي أغنية؟

لو لم أَفهمْك بصورةٍ خاطئة، فأنت تَخترِع كلماتٍ لِلَحنٍ لا يرغب في مُفارَقة رأسك. ما الذي تقوله هذه الكلمات؟

ربما كان البعض في سيرتِك الآن؛ ولهذا تَعجزُ عن تَذكُّر الكلمات.

كيف تقول إنها جميلة جدًّا إذا كنتَ لا تتذكَّرها؟

حسنًا، ربما. هذا ممكن.

أُصدِّقك، أُصدِّقك.

ما كنتُ أقوله حينما طرأ موضوعُ العاداتِ هو أنني لم ألتزم بها. أتعرف؟ شعرتُ كأنني أُحلِّق فوق الرصيف، كأنني عُدتُ يافعةً مُجدَّدًا. كنتُ أسيرُ بسرعةٍ أو على الأقلِّ كان هذا انطباعي. كنتُ أُفكِّر فيك أنت وحدَك وفي السعادة التي سأُقدِّمها لك بكلِّ ما سأشتريه لك لتأكُلَه.

بالضبط: كما لو أنني لم أكن أعرف أين أسير. لن تُصدِّقَني، اندهشتُ حينما وجدتُ نفسي فجأةً وجهًا لوجهٍ مع الجزار وأنا أطلب منه شرائح اللحم، وكذلك بعدها بقليلٍ حينما كنتُ أُديرُ مقبض الباب لدخول محلِّ المخبوزات.

كيف لك أن تَعرِفَ أن هذا قد حدث؟

ما معنى أنك عَرَفتَ بسبب ما حَدَث مع أختِك؟

لا أفهمك.

لا، لا يمكن!

كيف لك أن تتجرَّأ على التفكير في هذا؟

وكيف لي أن أُغرَم بك؟ أنت يافعٌ يا سانتي، وأنا استمراري في الحياةِ

مُجَرَّد هدية. لا، إياك حتى أن تُفكِّر في المسألة؛ فهي ليست سوى محض جنون. يبدو أنَّ حبسك جعلك تَهذِي.

أنت وَقِح. كفى. إياك أن تُواصِل هذا الكلام.

وبالمناسبة، ليس صحيحًا أنك مُغرَم بأختِك. سبق أن شرحتُ لك أن هذا أمرٌ مستحيل، وممنوعٌ تمامًا بموجب القوانين الربَّانية والبشرية. أظنُّ أن رأسك بدأ يتأثَّر بالحَبْس في الحَمَّام لفترةٍ طويلة؛ ولهذا تَخطُر لك حماقاتٌ كثيرة.

يا لَعقلك المُتخلِّف!

كفى عتهًا يا فتى! بدأتَ تُصيبُني بالتوتُّر نوعًا ما.

ها أنا ذا أُؤكِّد لك مرةً أخرى أنني لستُ مُغرَمةً بك، ولا فرصة لحدوثِ هذا حتى لو استحلتُ إلى مجنونة. فما تقوله أيضًا ضد كلِّ القوانين الإنسانية والربَّانية. صحيحٌ أنك تبدو لي لطيفًا، لكني أُحبُّك كحفيدي؛ فمنذ وصلتَ إلى شقتي أشعر بصُحبةٍ لم أستشعرها طيلةَ حياتي. لكنَّ هذا هو كلُّ شيءٍ لا أكثر ولا أقل؛ لذا توقَّف عن التفوُّه بهذه التفاهات.

هذه ليست سوى أكذوبة.

تقول لي هذا لكي آسَفَ عليك وأثِقَ بك وأفتحَ لك الباب. أتظنُّ أنني سأُصدِّق أنك تَخرُج للسرقة من أجلِ جمعِ المال والذهابِ للبحث عن أختِك. لم تحبكها جيدًا. ما ابتكرتَه للتوِّ يبدو كروايةٍ رومانسيةٍ رخيصة، وأنا لم تُعجبْني قطُّ الرواياتُ الرومانسيةُ الرخيصة.

لماذا تَشعُر بالوحدة بدون أختك؟ ألم تقل إنَّ لديك عائلةً وأصدقاءَ كُثُرًا يدعونك سانتي؟

لا، لا فكرة لديك عن معنى أن تكون وحيدًا.

حسنًا. لا تَنفعلْ هكذا. أُصدِّقك. غريب، يبدو لي أنك تسعى للعبِ دور الطيِّب لأرحمَك وأتركَك تخرجُ من مَحبسِك.

لكن قل لي: إذا كنتَ بهذه الطِّيبةِ التي تدّعيها، فلماذا ترفضُ إعادةَ الصورةِ الوحيدة التي أمتلِكُها لأمي؟ هيا، قل لي. أنا مُنصِتة.

وكيف لي أن أُخيفَك؟

لا تكن غبيًّا. عُمري ثلاثةٌ وتسعون عامًا وعلى وشك الدخول في عامي الرابع والتسعين. يا سانتي... أُقسِم لك أنني لم أَقتُل بعوضةً طيلةَ حياتي.

بصورةٍ ما أنا مُتفِقة معك: أنت محبوس وأنا صاحبةُ القرارِ حتى في مسألة تناوُلِك للطعام، لكن قل لي: بأيِّ شيءٍ قد يُساعِدُك احتفاظُك بصورة ديليتا؟

حسنًا، فلْتحتفِظْ بها إذًا.

إذا كانت تُشعرُك بقدرٍ أكبر من الأمان وبوجودِ فُرصٍ أكبر لك للحصول على الطعام فلْتفعلْ ما يَحلُو لك، لكن احذر: لا تُمزِّقها ولا تُوسِّخها ولا تبللها. أُقسِم لك لو أصاب الصورةَ أيُّ سوء، فإنني لن أكون مسؤولةً عن أيٍّ من أفعالي، وحينها عليك أن تخشاني بالفعل. هي آخِر كنوزي المُتبقِّية وأعتقدُ أنني سبق أن حذَّرتُك.

شعورٌ متبادَل. ليس لديَّ أيُّ ثقةٍ بك أنا أيضًا.

أنت شرير بطبعك ووُلدتَ على هذا النحو، وإلا فلِمَ فعلتَ ما فعلتَه بصورة أبي؟ ما سبب إقدامك على ذلك؟ إن كنت كما تقول قد خرجت لجمع المال اللازم بأي طريقة لتبعد أختك عن ذلك المنزل، فلِمَ مزقت بكل سهولةٍ صورةَ أبي؟

لا، لا أُصدِّقك.

توقَّف عن الحماقاتِ ولْتخرسْ قليلًا.

جميل جدًّا.

بينما تقبع في صمتٍ لبعض الوقت تفكِّر قليلًا بخصوص الأشياء التي قلتَها لي للتو، سأذهب لأُجهِّز لك شرائح اللحم. سأُعدُّها لك كلَّها، فربما هذيانك هذا بسبب الجوع.

لقد نسيت، اعذرني. أنا أنسى كل شيء.

هي السن. أنت تعرف، كانت ذاكرتي مُذهِلة سابقًا. لا فكرة لديك عما كانت عليه. كنتُ أتذكَّر كل الأشياء، حتى تلك التي لم أرغبُ في تَذكُّرها، لكن الوضع الآن أصبح على النقيض.

ها هي أربع قطع من الـ«بالميز» لك، وواحدةٌ لي.

في صحتك ومن أجل صداقتنا.

شكرًا. رغم تَفوُّهِك ببعض الحماقات، فإنك تتصرَّف بأدبٍ اليوم.

سأذهب لإعداد شرائح اللحم. كُن مؤدبًا.

* * *

يا لَلصعوبةِ التي تَكبَّدتُها لإشعال المَوقِد. كان عذابًا حقيقيًّا.

لقد فقدت كامل اتزاني يا سانتي، يجب أن أشعله وأنا شبه جالسة على الأرض، أولًا أفتح محبس الغاز، ثم أنحني بأسرع ما يمكن لئلا يتسرب الغاز، ثم أضع الثقاب في الفتحة الموجودة في أرضية الفرن، محض جنون أن أُضطَرَّ لفعل كل هذا في غضون ثوانٍ.

عُمر الفرن نحو أربعين عامًا تقريبًا، لكنه رائع. ما زالوا يصنعونه بنفس الطريقة. شاهدتُ الموديلات الجديدة. أليس لمصمّميهم أمٌّ أو جدةٌ تطلب منهم التوقف عن صناعته بهذه الصورة؟ تخبرهم أن انحناء المسنين هكذا لإشعاله يعدّ سخافة؟ يغضبني الظلم في هذا العالم؛ وبالمثل برودُه. لكن الأمر استحقَّ العناء. شرائح اللحم كثيرة ولو قليتها لارتفع مستوى الكولسترول لديك. على المرء أن يَعتني بنفسه مُنذ الصِّغر، وإلا فإن المشاكل ستظهر حين يفوت وقت علاجها.

نعم، حالًا. اعذرني.

إنني أتحدَّث ولا أُلاحِظ. أنسى كلَّ شيء. وجودُ شخصٍ يُمكِنني الحديثُ معه أمرٌ جميل ومُختلِف جدًّا. حضورُك يُشعِرني بالسعادة يا سانتي.

طيِّب، طيِّب.

استَعِدَّ للمُفاجأة.

ما رأيك؟ يا لَها من مُفاجأة! أليس كذلك؟

لم أضع عليها زيتًا وخلًّا. فقط بعض الملح. أتمنَّى أن تُعجِبك. لو وضعتُ الزيت والخل كانت ستُبقِّع الأرضية.

بكل تأكيد.

أُحِب هذه الرُّوح الإيجابية التي تتملَّكُك اليوم يا فتى. الطماطم شهيَّة بأيِّ طريقة. هل كنتَ تعرف أنها فاكهة وليست من الخَضراوات؟

نعم، على الرغم من أنها لا تبدو كذلك، لكنها فاكهة.

لم أَفهَم السببَ قط. أتذكَّر أنني حينما كنتُ أدرّس وكان عليَّ أن أُخبِر طُلابي بالمسألة، وحين ينقاشني أحدهم ويقول إنني مخطئة، لأن الطماطم لا

تؤكل للتحلية أبدًا، أردّ عليه بأنها فاكهة حتى لو لم تؤكل كتحلية، وأن العلماء أثبتوا ذلك، وهم لا يمكن أن يخطئوا. والحقيقة يا سانتي أني لم أعرف أبدًا كيف أردّ، فأتوتر أكثر؛ ولذا حين يواصل أحدهم عناده كنت أرسله للعقاب خارج الفصل، وهكذا أتخلص منه. للمرأة المدرّسة طرقها في إفهام الطلاب، والعقاب أحد هذه الطرق، وفي الحالات القصوى كمسألة الطماطم، يكون هو الطريقة الوحيدة.

إنها فاكهة.

لا تُناقِش وإلا عاقبتُك.

بالطبع يمكنني أن أُعاقبك.

سأتركك وأرحل مثلًا، أو يُمكِنني كحلٍّ أخير أن ألجأ إلى ما أفترض أنه أسوأ عقاب لك، أتركك دون تَذوُّق لقمةً واحدةً لبقية اليوم، لكنه سيكون عقابًا مبالغًا فيه. يرتبط النجاح في تطبيق العقوبات بعامل التناسب أو العدالة.

لا أعرف إن كنتَ تفهمني.

لا، أنت لا تفهمني.

ولست فقط لا تفهمُني، لكنك على ما يبدو لم تقتنع بعدُ بأن الطماطم فاكهة.

سأتركك وحيدًا. لم تترك ليَ خيارًا سوى تطبيقِ عقوبةٍ عليك وأُحذِّرك، لن أعودَ إلا حينما أسمعُك تصرخ بأن الطماطم فاكهة.

لتتعلم كيف يجب عليك أن تتصرَّف في المدرسة.

* * *

لماذا؟

لماذا فعلتَ ذلك يا ابن الزنا؟

أنت حُثالة. عارٌ على البشرية. وسخ وكارثة. ليس لك خلاص. أنت شيطان، بل أنت إبليس نفسه.

لكي أتعلم ماذا؟

ما الذي تسعى لتعليمي إياه يا ملعون؟

يا منحط! لا يمكنك أن تُعلِّمني أنا أو غيري شيئًا.

ما فعلتَه ليس عقوبةً، بل فعلةٌ مُنفِّرة وفظاعة وتوحُّش. ألم تجد سوى صورة أمي؟ مَن كان سيخطر بباله! لا، أعجز عن تصديقِ أنك مزَّقتَها.

كلُّ ما كان عليك فعله هو الصراخ بأن الطماطم فاكهة. لم أطلبْ منك سوى هذا.

أنت مجنون. مجنونٌ تمامًا. حيوان تافه بلا عقل. بهيمة.

ولن تَحظى أيضًا بعفو الرب. أُخبِرك بهذا الأمر منذ الآن لكي تعرفه.

كنتُ سأحضر لك شريحتَي اللحم كما كنتَ ترغب. كنتُ سأحضرهما على أي حال. لم تكن محتاجًا إلى فعل ذلك. صدِّقني أنك لو كنتَ طلبت، لكان ذلك كافيًا وأكثر.

أعطيك الطعام في الوقت المناسب، وإلا اضطررتُ لإطعامك طيلة الوقت، لا أتصرّف حسب رغباتي، أحاول إحلال النظام فقط في الفوضى التي تملأ حياتك.

نعم، أيضًا.

بجانب الجزء المقطوع من الصورة، سأبكي في المطبخ وأجلب لك شريحتَي اللحم.

حاضر، سأُواصِل قصَّ الحكاية، لكن من فضلك لا تمزّق أي جزء منها مُجدَّدًا.

من فضلك يا سانتي! من فضلك، من فضلك، لا تُكرِّر فعلتك.

* * *

خذ.

سأبدأ حالًا في قصِّ حكاية أمي، لكن لا تتضايق أو تمزّق جزءًا آخر من الصورة. إذا اقتصر الأمر على الزاوية السفلى فلا مشكلة؛ سأُصلحها بالشريط اللاصق، كما فعلتُ مع صورة أبي، لكن لا تُقدِم على أي فعلٍ مجنونٍ من فضلك. الأمور الآن جيدة: شريحتا اللحم معك كما طلبت، وسأُواصِل قصَّ حكاية ديليتا.

لا، لا حاجة لإغلاق عينيك.

لا داعي لذلك.

على أي حال، حتى لو قلت لك أغلقهما لتدرب خيالك، فإنك لن تفعل، مثلما جرى في المرة الأخيرة، أتظنّ أنني نسيت؟

لا؟ لم أنسَ. كما لم أنسَ ما فعلتَه بكنزيَّ الوحيدَين. صدّقت أم لا، أنسى بعض الأشياء فقط، وليس كلها.

أَنصِت باهتمام:

زأر مُحرِّك الـ«فارمان» وكانت أمي المُنتشِية سعادةً تنظر إلى أجهزة تَحكُّم

الطائرة في نفس الوقت وتدير رأسها بين الحين والآخر من النافذة صوب جُثمان الرجل.

اعذرني على توقُّفي. دقيقة واحدة. لا أدري لماذا قلتُ كلمة «نافذة»، أفترض أن هذا -لأكون دقيقة- كان بسبب عجزي -لفرط حماسي في رواية أحداث ذلك الصباح- عن العثور على الكلمة التي تقرّب المسألة لك، خاصةً وأنك لا فكرة لديك عن المركبات الجوية في القرن الماضي ولا عن قمرات قيادتها. في الحقيقة، ليس للـ«فارمان» نوافذ، كانت قمرتها مفتوحة للهواء الطلق، ومجوّفة من الداخل، ولم يكن يبرز من رأس الطيار، الطيارة في حالة أمي، سوى عدة سنتيمترات قليلة. إذًا... لم تكن ديليتا تُخرِج رأسها من النافذة، لكنها نهضت من مقعدها وأخرجت رأسها قليلًا من القمرة.

أدركت الآن أنني لم أتحلّ بالدقة الكاملة، يجب أن أخبرك أنها بعد أن نظرت منتشية وسعيدة نحو أجهزة الطائرة، وبعدما التفتت نحو موضع جسد الرجل المطروح، ارتدت فورًا النظارة الواقية والخوذة المستقرة عند قدميها، ثم لم تلتفت خلفها بعد ذلك على الإطلاق.

نعم!

اضطُرَّت لاتخاذ قرار، بين أن تُنقِذ الرجل، أو تتقدم نحو ما حلمت به طوال حياتها.

بالتأكيد اختارت نفسها، اختارت الطيران.

ما الذي كنتَ ستفعلُه أنت في هذه الحالة؟

أترى؟ لا تعرف.

شكّت ديليتا كذلك لأنها كانت امرأة طيِّبة، تنقّلت نظراتُ عينَيها الخضراوَين بين أجهزة الطائرة وعُشب «لونغتشامبس»؛ لأنها لم تكن مُتيقِّنة

من قرارها، لكنها في النهاية اتخذَت القرار الصحيح.

هل نبدأ مُجَدَّدًا؟

كانت طيِّبة، في قمة الطِّيبة.

كان قرارها هو الطيران لعدة دقائق، هذه المدة لن تُغير كثيرًا من وضع الرجل الجريح، وفكّرت أنها سيكون لديها وقتًا كافيًا لمساعدته حين تهبط.

ومن أنت لتَحكُم عليها بمثل هذه الصورة؟

أنت تحديدًا! لماذا لا تنظر قليلًا نحو ذاتك؟

إنك مزّقت الصورة الأحب للمرأة التي ترعاك منذ يومين دون أي إحساس، فقط لتجبرها على إحضار شريحتي لحم لك، وها أنت تتجرأ على إصدار حكم قاطع على أمي الطيبة.

انظر إلى نفسك في المرآة يا بائس!

يا لَوقاحتِك! كيف أخطأتُ في الحُكم عليك هكذا؟

سأذهب وأسلق لي بعض الخضروات لآكلها. قم بما يحلو لك. إن كان يريحك؛ مزّق الصورة لألف قطعة. أعتقد أنه لم يعد يهمني ما تقوله أو تفعله.

لو كان الأمرُ بيدي، لأوصيتُك أن تستغل الوقت في النظر إلى نفسك، لتدرك أي حثالة بشرية أصبحت. وإن كنت أعلم أنك لا تكترث بدروسي ولا نصائحي، وأن كل ما يهمك هو الأكل كالحيوانات... أجل، وأختك أيضًا، لكن بشكل مقزز.

قل ما يحلو لك. لا يهمُّني.

الأخت أختٌ يا فتى سواء هنا أو في الصين.

افعل ما يحلو لك. سأذهب لسلق الخضراوات، وإذا واتتْني الرغبة فسآكُل كل شرائح اللحم المُتبقِّية.

لا أدري. سنرى.

لن تُخبِرني ما الذي يجب أن آكُلَه. هذا ما كان ينقص.

* * *

شكرًا يا سانتي.

أنت غير مستقرٍّ أبدًا. تتحوَّل من كائن فظّ، إلى ولدٍ شديد الحنان واللُّطف في غضون دقائق.

أقصد غير مستقرٍّ عاطفيًّا.

مثل أغلب المراهقين. لا تظن أن هذا يَحدُث لك وحدَك، لكني أقول لك، إن هناك شخصًا طيبًا جدًّا داخلك.

كم كانت ديليتا جميلة!

شكرًا لأنك أعدتَها إليَّ. ظننتُ أنني لن أراها مُجدَّدًا وأنها لن تُرافِقني من جديد.

سأُلصِقُها.

نعم. بعدما أُلصِقُها سأحضر لك شرائح اللحم، وإن كنتَ تحب فسأجلب لك بعضًا من شرائح الطماطم.

جميل.

ومرةً أخرى شكرًا جزيلًا يا عزيزي. يُسعِدني تمتعك بمثل هذه المشاعر الجميلة. أعتقد أن الربَّ العليم بكل شيءٍ سيأخذ في اعتباره هذه الأفعال

القضيّة، وأنه بِناءً عليها ربما يُقرِّر خلاصك في يوم الحُكم النهائي. سيعتمد هذا بكل تأكيدٍ على ما تفعله من الآن فصاعدًا. إذا أصررتَ على معاودة السرقة والبحث عن أختك في ذلك المنزل، فلا أظنّ الرب سيسامحك، مهما كان طيبًا، لن يكون سهلًا عليه. إن سامحك؛ فسيستاء بعض الناس كثيرًا، ويحسبونه ظالمًا. وإن كان هناك أمر يخص الربّ فهو الكمال، وامتناعه عن مثل هذا الظلم، فالربّ لا يفعل الأشياء لأنها تحلو له فقط.

اصمت. الآن سأعود.

* * *

ها هي. ستجد بين صفحات الصحيفة شريحتَي لحمٍ وبجانب إحداهما شرائح الطماطم.

اسحبها فقط.

جميل جدًّا.

أنا أيضًا طيِّبة. لم آكُل شريحةً واحدة من اللحم، رغم وجود كميةٍ كبيرة. في النهاية طبخت حساء كل يوم.

شكرًا. كل مرةٍ أسمعك تناديني «ليتا»، أعرف أن الأمور بيننا تسير كما يجب، أو كما يجب أن تسير بيننا، إذا لم تُغيِّر طبعك بين الحين والآخر.

بالطبع. سأقصُّ عليك حالًا نهاية قصة أمي. شكرًا على إعادة الصورة إليَّ. باتت جيدةً جدًّا، وفي الحقيقة أعتقد أنني لم أكن لأَقدِر على مواصلة الحكاية دون وجود صورة ديليتا بين يديَّ. أعتقد أنني لم أكن لأَقدِر على فعلها.

حالًا، حالًا، لكن دعني أُحذِّرك، فبَعدَها سأذهب لنوم القَيلولة. أنا ميِّتةٌ من التعب، ووجودك هنا ضاعف المهام المفروضة عليَّ. افهم المسألة؛

فأنا لم أَعُد طفلة.

ممتاز.

أسعد بك حينما تبذل جهدًا وتضع نفسك في مكاني. الآن أَنصِت باهتمام:

ديليتا كانت ترغب في الطيران. أنت تعرف أنه كل ما حلمتْ به في حياتها. أخبرتك بهذا في بداية القصة، وحدث بالفعل أن طارت! طارت في الصباح الذي كان مكتوبًا لها فيه أن تطير. ارتدَت النظاراتِ الواقيةَ الجلدية، وأمسكتْ عصا القيادة الشبيهة برافعةٍ مُزوَّدة بمقبض وسارعت، وهنا بدأت المركبة الجوية في الانزلاق ببطء فوق العشب. لا أعتقد أنني قادرة على وصف ما أحسَّت به أمي في تلك اللحظة: خليط من التوتُّر والقلق والسعادة كان يجعلها تضحك إلى حدِّ القهقهة من ناحية، لكنه من الناحية الأخرى كان يجعلها تتعرَّق بغزارة، خاصةً في يدَيها وجبهتها. كانت تشعر بكونها فريدةً وسعيدةً وكاملة. امرأة كما يجب أن تكون.

لا، لم تنسَ الرجل. قلتُ لك إنها فكَّرتْ في مساعدته بعد الطيران، وأن بضعَ دقائق لم تكن لتُغيِّر من وضعه.

دعنا لا نبدأ هذا الهُراء مُجدَّدًا من فضلك. انتظر حتى أنتهي من القصة.

حسنًا، سأُواصِل.

قادت ببطءٍ حتى رأس المَدرَج، وهناك التفَّت وجعلت الطائرة في وجه الرياح كما علَّمها. حينئذٍ رَسمَت الصليب؛ فأمي كانت شديدة التديُّن يا سانتي. لا أعرف إن كنتُ قلتُ لك هذا من قبل، لكنها فوَّضت أمرها إلى الرب وإلى عذراء لوخان الشفيعة التي كانت من مُريديها، ثم تحسَّسَت الروافع التي ستستخدمها وراجعتْ ذهنيًّا روتين الإقلاع والطيران.

رُسمَت ابتسامة عريضة على وجهها في النهاية وأمسكتْ بالمقبض الصحيح وسارعتْ لأقصى درجة.

ظلَّت تتدرَّب كل صباح طيلة أسبوعين.

إن سبب عدم تمكنها من تشغيل الطائرة رغم التدريب هو أنها تدربت دومًا والمحرك مغلق، والمرة الوحيدة التي اصطحبها للطيران، كانت ديليتا مُنتشيةً ولم تشاهد كيف شغَّلَها، أما باقي أمور القيادة فكانت تعرفها جيدًا.

لديك مشكلةٌ كبيرة مع الثقة.

كأنك تريد وضعي تحت الاختبار طيلةَ الوقت. لا يُعجبُني هذا يا سانتي. لماذا قد أكذب عليك؟

لا أسباب لديّ.

هكذا أفضل. أحبك أكثر حينما تتصرَّف وَفقًا للأصول.

هل أُواصِل؟

طيِّب، لكن لا تُقاطعْني مُجدَّدًا. من فضلك يا فتى، يَصعُب عليَّ كثيرًا العودة بالذاكرة إلى هذا اليوم مع كل ما يَعنيه لي، ويَصعُب عليَّ أيضًا الاضطرار إلى خوض رحلة العودة بعد عدة ثوانٍ من النقاش معك.

حسنًا.

سارت الطائرة فوق المَدرَج، تسارعت وارتفعتْ في الهواء قبل أمتارٍ قليلةٍ من جسد الرجل الجريح. لا أجد الكلمات المناسبة للحديث عن شعور السعادة القصوى الذي جربته أمي حين أدركت أنها ترتفع في الهواء، وحدها، هي هناك والسماء بأكملها تحت إمرتها. إحساس بالحرية لا يضاهيه شيء، شعور أنها امتلكت نفسها وتركت العالم تحت قدميها، الحرية يا بني

ترتبط تمامًا بمفهوم الملكية. يشعر المرء بحريته إذ يمتلك، حينما يمتلك ما رغب فيه عمره كله، من كل قلبه، سواء كان هذا الشيء روحيًّا أو ماديًّا. للفلاسفة أن يقولوا ما يريدون عن الحرية، لكن الحقيقة الوحيدة هي أنها امتلاكنا لشيء رائع أو حلم عظيم، وكل ما دون هذا ليس إلا كلام فارغ وحماقات. هل سمعتني؟

نعم يا فتى، هي هكذا بكل تأكيد.

اتركني الآن أُواصِل الحكاية، وإن أحببت، فيُمكِنني أن أشرح لك مسألة الحُرية بعمق أكبر في أي وقت.

لا مشكلة، يشرفني. يبدو أن الموضوع يهمُّك.

اتفقنا.

صدِّقني... شعرتْ ديليتا في تلك اللحظة تحديدًا بإحساسٍ من الحُرية المطلقة، وأيضًا برجفةٍ أو رعشةٍ تسري في كل أركان جسدها البارع الجمال، كأنها دفقة من الكهرباء الداخلية التي جاءت لتُخبِرها بنفس ما قلتُه لك تقريبًا عن الحُرية، لكن بصورةٍ أخرى. ارتفعت الطائرة نحو مائةٍ أو مائتَي متر، ورغم أنه كان من الممكن رؤية الشمس الخجولة لدى أحد الجانبين، لكن السماء كانت ملبّدة بالغيوم، وعلى وشك أن تمطر. وحينها قرَّرتْ أن تُدير ذراع التحكُّم لكيلا تبتعد كثيرًا عن المَدرَج فتضيع، استمتعت كثيرًا حين انعطفت الطائرة انعطافًا واسعًا لترى المدرج مجددًا بعد عدة ثوان. خفضت ارتفاع الطائرة إلى نحو ثلاثين أو أربعين مترًا عن الأرض لتبدأ الهبوط، لكن كلا، لم تهبط. بل مرّت من فوق جسد الرجل بأقرب قدر ممكن ثم عادت لتعتلي السماوات منتشية، بينما تفيض بالعاطفة. سارت في خطٍّ مستقيمٍ نحو أربعمائة متر، بل ربما كيلومتر أو أكثر. لا أعرف تحديدًا،

لكنها كانت متشية من منظر العالم الذي يبدو صغيرًا من عُلوٍّ، وعيناها الخضراوان تنظران نحو قمم الأشجار المُتحرِّكة والدروب المليئة بالتراب التي كان تنفتحُ وتنغلقُ في وجه الأُفُق، والحقول المربعة المثالية، وأشكال السحب الملتوية، والنقاط الصافية الضئيلة في السماء، بينما تُنصِت مستمتعة إلى ضجيج مُحرِّك الـ«فارمان» وإلى تزايُد دقات قلبها القوية والمتسارعة. كان وجهها يشعُّ فرحًا وتضحك وتُقهقِه وتبكي وتصرخ يمينًا ويسارًا، مبتهجةً في قُمرة القيادة. كل هذا في الوقت نفسه. كانت هي الربَّ -بشكلٍ ما- مراقبًا الأرض من عُلوٍّ. كانت سعيدةً بنفس الصورة التي كانت عليها حينما أنجبَت ليتا، ابنتَها وحبيبةَ قلبها، لكن بعد عدة مربعات، قرَّرتْ أنها اكتفت، وأن الوقت قد حان لمساعدة الرجل الجريح، حينها أدارت الذراع. انعطفت الطائرة انعطافًا قويًا بقدر مائة وثمانين درجت، وانتحت مقدّمتها نحو أرضية المدرج الخضراء التي كانت تتراءى عن بعد،

وهنا خفضَت السرعة وبدأت بعدها عملية الهبوط على الفور. بدأت تُرخِي الذراع ببطءٍ كخبيرةٍ وانحنَت الطائرة بالصورة الملائمة حتى هبَّ -بينما كانت على بُعد ثمانية أو عشرة أمتار من الأرض- تيارُ هواءٍ ملعونٌ أحاط بجَناحَي الطائرة من الخلف. لم يتبقَّ وقت لديليتا، لكنها استغلتْ لحظةً أبدية لتُفكِّر فيَّ، في ابنتِها الوحيدة، طفلتِها، حبِّها الكبير، للمرةِ الأخيرة بينما كانت الطائرة تنكبُّ بصورةٍ عموديةٍ فوق المَدرَج. لم تتمكَّن بالطبع يا سانتي من القيام بأي مناورةٍ لتفادي الاصطدام. للأسف لم تتمكَّن وسقطتْ على بُعد مسافة قصيرة من المكان الذي كان جسد هذا الرجل مطروحًا عنده.

نعم. المسكينة ماتت على الفور.

بعد خمسٍ وأربعين دقيقةً من ترجُّلها من السيارة عند باب المطار. تحديدًا

بعدها بخمس وأربعين دقيقة.

ربما كانت هذه النهاية أفضل لها، فلو نجتْ لكانت ستقضي حياتها معاقة، وسيكون عليها تقديم تفسيرات مطولة حول الطلقتين اللتين عثرت الشرطة عليهما بعد ساعات من جسد الرجل الخسيس. يعلم الربُّ لماذا يُدبِّر أموره هكذا. يعلم الربُّ، بينما نحن -أبناءه- ليس من اختصاصنا الحُكم بأي صورةٍ على تدابيره.

آسفة يا فتى، لكني لا أستطيع الآن توضيح أيٍّ من شكوكك.

بعد قليلٍ يا عزيزي.

لا يُمكِنني القيام بأي شيءٍ الآن. كل ما أرغب فيه هو البكاء.

نعم، بكل تأكيد.

بالطبع، أعدك.

* * *

تركتُك وقتًا طويلًا وحدَك. أعتذر لك. لم تَكُن نِيَّتي. ظللت أبكي في فراشي حتى نمتُ بعُمق. أظن أنني نمتُ كثيرًا.

كانت لديَّ رغبةٌ كبيرة في البكاء.

ليست رغبة، بل حاجة.

سبق أن أخبرتك أنك أول شخصٍ أقصُّ له حكاية أمي يا سانتي، وجرى أني عشتُ القصة من جديدٍ داخلي حينما كنتُ أقصُّ عليك نهايتَها، وإن كان يستحيلُ عيش ما قد عِيش مرةً أخرى، ما يصحُّ قوله هو أنني كنتُ أرى الأمورَ كما لو كنتُ موجودةً هناك في تلك اللحظة، بجانب ديليتا في

قُمرة القيادة حينما سقطتْ بمُقدِّمة طائرتها فوق عُشب «لونغتشامبس» ولم أكن قادرةً على فعل شيءٍ لإيقاف ما حدث.

أعتقد أنني عانيتُ موت أمي للمرةِ الثانية، أو ربما للمرةِ الأولى لأنني كنتُ صغيرةً للغاية حينها ولم تكن لديّ أي ذكريات عن المشاعر التي خضتها في ذلك اليوم.

نعم، قل لي شكوكك.

صحيح. كان الرجل في النهاية مُحقًّا حينما أوصى ديليتا بعدم الطيران في ذلك الصباح، لكنه يا عزيزي كان يعرف المسألة قبل وقتٍ طويل من إدخالها ذلك الفندق ولم يَقُل شيئًا. قاله فقط بعدما استغلها، وهذا لا يصحّ. لم يتبق لديليتا أي فرصة للطيران سوى في ذلك الصباح؛ فقد كان من المُحتمَل ألا تطير أبدًا إذا اختفى ذلك الرجل إلى الأبد؛ فهكذا يتصرَّف الرجال.

لا، لم يكن يُحبها.

لا تُصِر. ما كان ليفعل ما فعله لو أحبها، كان سيُكافِح من أجل حُبِّه، كان سيتودَّد إليها لفترة. ثمة أمور عديدة لطيفة يمكن للعاشق أن يبين بها حبه، لكن لا؛ لم يخطر لهذا الرجل سوى ابتكار اتفاق الدفع الوخيم هذا لينزع عنها قميصها بيدَيه الغليظتَين.

كان هائجًا.

لا، لم يكن مُغرمًا ولن تجعلني أُصدِّقك.

وها هي مسألة أختك مرةً أخرى. لا يمكن أن يكون حبًّا. سبق أن شرحتُ لك. أنت مريض يا فتى ولا أعرف كيف سأُعالجك من هذا الشر.

ترفض أن أُعالجك لأنك لم تُدرِك بعدُ أنك مريض. حينما لا نعي المشكلة

حقًا لا نستطيع فعل شيء لحلها. وبمجرد أن تدرك ما بك؛ سيُمكِنني حينها البدء في مساعدتك، لكن عليك بذل جهد لذلك؛ فأنا لوحدي عاجزة. يجب أن تفعل ما يتوجب عليك، ولتعلم أنك لن ترحل عن هنا إلا بعد شفائك.

لا، لم أكذب عليك.

على الإطلاق. صحيح أنني انتهيت من قصِّ حكاية أمي لك، لكن حينما اتفقنا لم أكن أعلم أنك مريض أخلاقيًّا هكذا. كيف أتركك تخرج إلى الشارع وأنت في مثل هذه الحالة؟

لا، لا يُمكِنني السماح بذلك.

سيكون انعدامًا تامًّا لحسّ المسؤولية من جانبي. اعتقِد ما تشاء واصرخ بحماقاتٍ أيضًا إن شئت.

لا يهمُّني.

سأجلب لك بعض قطع الـ«باليز»؛ فربما حينها قد يتحسَّن طبعك.

* * *

ها هي قادمة. لا تتذمَّر أكثر من هذا. جلبتُ لك دستة. سترى الآن كيف ستُنسيك حلوى الـ«باليز» المِزاجَ السيئ.

ما الذي حدث بعد ماذا؟

أها!

حسنًا... بعد نحو ساعتَين تقريبًا وصلَت الشرطة. اضطُرُّوا إلى كسر القفل الذي كان يُغلِق البوابة ليتمكَّنوا من الدخول.

تأخَّروا ساعتَين لأنه لا أحد يعيش في ذلك الحيّ. لم يسمع أحدٌ صوت

الاصطدام؛ ولهذا السبب تحديدًا كانوا قد اختاروا «لونغتشامبس» لبناء المطار، لكن كان هناك رجل يتجوَّل ممتطيًا جوادَه شاهَد الطائرة وهي تسقط من بعيدٍ وأبلغهم.

نعم، كان من الغاوتشو، وما المشكلة؟

أنت مُخطِئ. الغاوتشو شاهَد السقوط لأنه كان يتجوَّل متكاسلًا فوق حصانه في السهوب. ربما يكون قد هرول ببطءٍ نحو قسم الشرطة؛ ولهذا تأخَّروا كثيرًا، بل إنه سار بكل تأكيدٍ خلف سيارة الشرطة لمعرفة ما حدث. الغاوتشو ليسوا سوى كُسالى وحُثالة.

لا، لو كانوا ذَوِي نفع أو شُجعانًا، لذهب أحدُهم عند باب الفندق في لاريكوليتا في الليلة السابقة، بل لَتحدَّى أحدُهم من اعتدى على أمي لخوض نِزال، لكن لا! يا لَلوهم! يظهر الغاوتشو دائمًا في النهاية حينما لا يوجد شيءٌ يُمكِن فعله.

كان جسد ديليتا حبيسًا بين الحُطامِ الحديدي لأحد أجزاء هيكل الطائرة وقمرة القيادة، أما بقية الأجزاء الأخرى فكانت مبعثرة في كل الأنحاء، وبعضها كان بعيدًا جدًا.

صحيح، وجدوا الرجل بعدما فارق الحياة عقب وصولهم.

حصل حقًّا على ما يستحقُّه.

ولماذا قد يهمُّك اسمه؟

هو مُجرَّد مختل بلا اسم. لا أحد.

حسنًا، لا أفهم السبب، فإن كان يهمُّك الموضوع أقول لك إن اسمه كان خوسيه.

أرنولد؟

هذا هو الخيال. هكذا يعمل يا عزيزي. أنت تخيَّلته أرنولد، بينما كان اسمه في الواقع خوسيه. ما أعجزُ عن فهمه هو ذلك الهوس أو تلك الحاجة التي تدفعك للبحث عن مقارناتٍ بين ما تتخيَّله وما هو واقعي.

أخطأتَ مُجدَّدًا يا فتى.

ما الذي يجعلك تفترض أن اسم خوسيه أكثر صحةً من اسم أرنولد؟

لكن... أليس من الممكن أن أكون قد كذبتُ عليك؟

ربما لا أعرف الاسم. ربما لم أعرفه قط واخترعتُه لكي تتوقَّف عن التحامُق.

إذًا أنت تُفضِّل تصديق الآخرين -وهو أنا في هذا الحالة- على تصديق خيالك الشخصي، وهذا ليس جيدًا بصورةٍ كلية. قلت لك الحقيقة: إن اسم الرجل كان خوسيه، ولكنك لن تُقابِل دومًا أُناسًا بمثل هذا الصدق. لو كنتُ مكانك لأوليتُ اهتمامًا أكبر لخيالي. هو هبة ربانية، وإذا كان الربُّ قد زرعه في رؤوسنا فأقول إنه فعل ذلك لسبب، ربما لنتمكَّن عبره من تشييد العالم أو الارتباط بالآخرين أو لكيلا تُصبِح حياتنا تعيسة، بل وربما أيضًا ليساعدنا على اكتشاف الحقيقة. تخطر لي أمورٌ كثيرة، لكن افعل ما يَطيب لك، فهي مشكلتك، لكن اسمح لي باستخدام حقِّ الانتفاع بخيالك، في ذاكرتي وبدايةً من هذه اللحظة فإن هذا الرجل لن يُدعى خوسيه مُجدَّدًا، بل أرنولد. أظن أن أرنولد اسم مناسب أكثر لوقحٍ مثل هذا أكثر من خوسيه.

ممتاز! هو خوسيه بالنسبة لك لكنه سيُصبِح أرنولد بدايةً من اليوم بالنسبة لي.

هل تناولت الـ«باميز»؟

أعجز عن التصديق. هذه معجزة تقريبًا. هل أنت بخير؟

كانت مزحة. لا تأخذ الأمورَ بهذه الصورة؟

لا تتضايق. استغربتُ أنك لم تتذوَّقها، خاصة وأنك تلتهم في لحظةٍ كل ما قد تطاله يداك.

حسنًا. تناولها الآن.

يحدث أحيانًا أن يتحمَّس أحدهم في محادثةٍ ما وينسى كل شيء، حتى تَناوُل الطعام.

أبلغَت الشرطة أبي، لكن ليس أي شرطة، بل مفوض الشرطة الفيدرالية شخصيًّا الذي جاء بنفسه إلى منزلنا في بلغرانو. تفهَّم الضابط فوراً أن أبي -على ما يبدو- كان يجهل الوضع برُمَّته، وحينها أطلعه على المسألة وقصَّ عليه ما يعرفُه بخصوصها، وأملى عليه تعليماتِه حول ما توجّب قوله على الملأ. قرَّرا في النهاية فيما بينهما أن الأفضل هو التأكيد على أن أمي رافقتْ أرنولد في رحلةٍ تدريبية، وأن الطائرة قد سقطت بسبب تيارات الرياح الكريهة الجنوبية الشرقية. لم يُسمح بالتقاط صورٍ لموقع الحادث أو للجثتَين، وكانت هذه الرواية هي ما نُشر في الصحف في اليوم التالي.

هذا أمر صحيح، لا يمكنني إنكاره.

أختك مرةً أخرى؟ وأي صلةٍ ملعونةٍ تربطُها بهذا الموضوع؟

لا يا عزيزي، غير صحيح.

لا تُخفي العائلاتُ الثرية هذا النوعَ من الأمور. كيف تتخيَّل أن أشخاصاً تَربَّوا جيدًا يمكن أن يسمحوا بالزواج بين الأشقاء؟

على الإطلاق. لا تسير الأمور هكذا.

أنت مجنون. حتى لو كنتَ ثريًّا لما تمكنتَ من العيش معها وإنجاب أبناءٍ منها.

لا يا سانتي، صدِّقني. هذا ليس ممكنًا.

أنت غريب. ها أنت الآن تُفضِّل تصديق خيالك على تصديقي.

بالفعل، صحيح. قلتُ لك سابقًا إن الخيال أفضل، لكن ليس دائماً؛ ليس في مثل هذه الحالة على سبيل المثال.

أحمق أصيل!

سأعدّ لنفسي كوبًا من الشاي. لا أحبُّ الحمقى والمتحامقين. يبدون مثل الغاوتشو كثيرًا.

لا تتحامق. لن أبدأ في الحديث مرةً أخرى كمجنونةٍ عن الغاوتشو.

«بالميز» أم بسكويت؟

حسنًا، لكن ليس الآن. بعد قليل؛ حين أنتهي من تناول الشاي. لا يمكن أن أسيرَ جيئةً وذَهابًا كلما خطر لك شيء. عُمري ثلاثة وتسعون عامًا، وعلى وشك الدخول في الرابعة والتسعين. أتمنى يا بُني أن تفهم في لحظةٍ ما تهالُك جسدي.

* * *

أتعرف أن اليوم هو السبت؟

صحيح. كيف لك أن تعرف؟! لا تدري شيئًا وأنت عندك في الداخل، لكن اليوم هو السبت وأيام السبت مختلفة تمامًا عن بقية أيام الأسبوع؛ على الأقل بالنسبة لي. لا يَعرِضون نشرة الثامنة في التلفاز على سبيل المثال،

وأذهب إلى القُداس في السابعة مساءً، في الكنيسة الواقعة بالمربع السكني المجاور. لا أدري إن كنتَ تعرفها.

يجب أن تعرفها.

يوجد كاهنٌ شابٌّ رائع. إن أحببت، فحين تخرج من الحمَّام سأُرافقك وأُعرِّفك عليه لتعترف بالخطيئة المُرعِبة المزروعة في قلبك.

خطيئة أختك، وأي خطيئة أخرى أقصدها؟

سيعرف كيف ينصحك أفضل مني. لقد ساعدني كثيرًا مُؤخَّرًا على التعامُل بكرامةٍ مع كل هذه الوَحدة.

أعتقد أنه يجب أن تتحدَّث مع أحدِهم. لا أعرف، لكن سيكون من مصلحتك أن تفرّج عن نفسك.

حسنًا. إن كنتَ لا تحبُّ الكَهَنة، فتحدَّث مع طبيبِ نفسي من أولئك الموجودين حاليًّا، لكن هذا الكاهن لا يبدو كبقية الكَهَنة. قد يُعجِبك. أنا أعرف ما أقوله.

حسنًا، لم تكن تعرف أن اليوم هو السبت؟

أترى؟ هذا هو ما كنت أقوله!

بالفعل، اليوم هو السبت. وبعدما سمعت ما قلته للتو، لا أفكر في تركك ترحل. حتى لو جننتُ فلن أفعلها.

صحيح، لقد وعدتك بأنني سأتركك تخرج حين أنتهي من قصّ حكاية أمي، لكن لم أقل في أي وقت.

هذا لمصلحتك.

إن تركتُك ترحل، فستركض لانتظار زيارة أختك في منزل أبوَيك.

أترى كم أنا مُحِقة؟

لا، لا؛ ففي هذه الحالة سأكون قد شاركتُ في خطيئتك. في السابق لم أكن أعرف، لكني أعرف أنك ستركض لانتظارها الآن. سأكون شاركتك الخطيئة. وصدِّقني يا فتى، إن كان هناك أمر أنفر من القيام به في حياتي، خصوصاً مع بقاء القليل فقط لي فيها، فهو إهانة الربِّ بالمشاركة في ارتكاب هذه الخطيئة الشاذة.

ولا بأي صورة.

ستبقى في الداخل حتى يوم الاثنين على أقل تقدير، لكن أخبرني، هل تُحبُّ أم لا أكل البسكويت الذي دفعتَني لشرائه؟

طيب، أَطبِق فمك واسحبه، سأُمرِّره الآن.

الوقت يمرُّ بسرعة. لم يبق الكثير على يوم الإثنين. سترى هذا بنفسك.

مخطوف؟

استمع لما تتفوه به. أنا أحبسك، هذه حقيقة، لكن من أجل مصلحتك. أُعلمك كثيراً من الأمور التي كنتَ تجهلها، وأُبعِدك عن خطر الشارع، وفوق كل شيءٍ أَحميك من نفسك. لم أختطفك. كيف لي أن أختطفك؟ إذا سمحتُ لك بالخروج فستتوجه مباشرةً للبحث عن أختك المسكينة، وهو أمر لا يمكنني التسامح معه.

وأنت أيضًا لم يكن لك الحقّ في الهجوم عليَّ من ظهري بسكين، لكني لم أُبلغ الشرطة. تحلَّيتُ بالشجاعة وتحمَّلتُ الموقف وحدي.

هل تدرك أنك جبان قبل أي شيءٍ آخر؟

نعم، مجرد جبان.

مائع وشاذ.

ستبحث عن محامٍ لتسجن سيدةً عُمرها ثلاثة وتسعون عامًا، وكلُّ أرادته هو تقديم المساعدة لك؟

ما تقوله محض جنونٍ يا عزيزي؛ ما هذه الأفكار التي تخطر ببالك؟ إن كنتُ أُبقيك محبوسًا، فهذا كي تترك أختك الصغيرة في سلام، أو لكي أُنقِذك بصورة أخرى، وهذا هو ما قد يفعله أيُّ إنسان عاقل، ولستُ أنا فقط. خاصةً بعد تأكدي أنك تسعى للخروج من أجل ارتكاب خطيئة بمثل هذه الخطورة.

حقوقك كإنسان؟

حسنًا، أعتقد أنك ستضطر لبذل جهد أكبر كي تشرح لي، كيف تعرف كل ما تعرفه عن المحامين وحقوق الإنسان وكل هذه الأمور؟ أنت لا تفهم في أي شيء آخر في العالم. إنك جاهل بكل شيء حتى عن الغاوتشو، وتخرج لي الآن بهذه المحاضرة القانونية!

نعم! وإن لم ترغب، لابد من شرح الموضوع.

أنا مُنصِتة. تكلم.

من الأفضل لك أن تأخذ الأمر بجدية يا سانتي، وإلا فللأسف لن أدعك تخرج حتى يوم الإثنين. لن أتركك تخرج أبداً، إن لم تخبرني أين عرفت بحقوق الإنسان هذه؛ فسأعرف أنك محتال كبير، وأن معك بالفعل سكينًا تقول إنه ليس معك، وأنك لا تسرق من أجل إنقاذ أختك من المنزل الذي تعمل فيه كخادمة، بل تسرق كلَّ يوم منذ كان عُمرُك خمسَ سنوات على الأقل.

تكلم، إن أردت الخروج يوماً من محبسك.

آه، فهمت.

بالطبع. بكل تأكيد. هو مُجَرَّد بائسٍ يضع هذه الأفكار في رؤوسكم المسكينة.

صفيق يحمل لقب محامٍ.

يا سلام يا فتى! هذا الرجل مُجرِم أكثر منك ومن كل أصدقائك في القرية مُجتمِعين.

وكيف ستدفع له مقابل خدماته؟ لأنني مُتأكِّدة من أنه لا يقدمها بالمجَّان. حُثالة مثله لا يفعل شيئًا مما يفعله من أجل الإحسان.

حصة؟

حصة من ماذا؟

آه، مما تجلبونه. بمعنًى آخر مما تسرقونه من العجائز العُزل مثلي.

يا مصيبتي!

أعجز عن التصديق. أنت ضائع يا سانتي. آسفة جدًّا، لكن هذه هي الحقيقة.

والعالم أيضًا ضائع. أنت والعالم، أنتما الاثنان ضائعان تمامًا.

نعم، بكل تأكيد. المحامي رجل طيِّب، وأنت وأصدقاؤك،كل الناس طيبون! ركِّز قليلًا فيما تقوله: تُرَّهات تلو الأخرى. يا لك من مُتبجِّح. عليك أن تخجل من نفسك.

كفى!

كفى! لا أرغب في معرفة المزيد. سأذهب إلى القُداس؛ فهذا هو موعده.

سأُصلي من أجلك يا سانتي.

وإن كان من الصعب عليَّ -مهما صليت- تخيُّل الطريقة التي قد يبتدعها الربُّ لتحسين سلوكك أنت وأصدقائك أو هذا المحامي الوضيع، الأكثر إجرامًا منكم جميعًا. يبدو لي أنه حتى الربّ نفسه في الوضع الحالي لا يستطيع تغيير هذا التعفّن الشديد الذي آل إليه العالم. لابد وأن الوقت قد تأخر. فالربّ قد فاض به الكيل منذ أمد من هذه الحماقة البشرية.

لا أعرف يا عزيزي. سأُصلي من أجلك بكل تأكيد، لكن لا تتوهَّم أكثر من اللازم. ما أقصده هو ألا تنتظر حدوث معجزة.

لا، الآن لا.

لا، سأقدم لك شرائح اللحم حين أعود من الكنيسة.

نعم، كلها ولا تخف. لا أُفكِّر في أخذ حصة منك نظير خدماتي كطاهية.

حتى لو كان صعباً عليك تصديق ما سأقوله، لكن مازال هنا بعض الشرفاء.

فليشملك الربُّ برحمته.

* * *

لقد تأخَّر الوقت. اعذرني.

مكثتُ بعد القُداس للحديث مع الكاهن، ذلك الذي قلت لك إنه شديد الطيبة واللُّطف، ومرَّ الوقت. يحدث لي هذا الأمر دومًا: أعثر على شخصٍ لأتحدث معه وأنسى كل شيء. الكاهن رجل جميل. يَجدُر بك أن تتعرَّف عليه.

صحيح، دعوت الربَّ من أجلك.

لا، لم أصلِّ من أجل الآخرين، فليُصلحوا أحوالهم بأنفسهم؛ فالوحيد الذي أهتمُّ بإنقاذه من الجحيم هو أنت.

تحدثتُ مع الكاهن أيضًا بخصوص هذا الوضع.

لا، قطعًا لا.

هل تظن أني كنت سأخبره أنني أحبسك في الحمام؟ لا، لا يمكن أن أفكر في هذا. قلتُ له إنني صادقت فتى من القرية في الرابعة عشر، ولد طيب، لكنه يعاني مشكلة خطيرة، فهو لا يمارس الجنس مع أخته فقط، بل يؤكد أنه مغرمٌ بها.

وأين المشكلة؟ ماذا كنت تريد؟ كان يجب أن أتحدَّث مع أحدهم. لم أستطع تحمّل وجع الأمعاء هذا وحدي، ثم إنه لا يحقُّ للكهنة البوح بما نعترف به لهم، لقد حرّم الرب عليهم ذلك، وكذلك البابا.

لم أتجرَّأ. لو أخبرته لاستاء مني أو حاول المجيء إلى هنا. لا، لم أقل له هذا، وإن كنتُ الآن وبعد التفكير في الأمر مليًّا أعتقد أن هذا حلٌّ جيد، سأطلب من الكاهن أن يأتيَ يوم الاثنين حينها سأتركك ترحل في النهاية. هو قوي، رجل بحقّ، فتى وسيم ويافع. لن تتجرَّأ على طعنه. ها أنت قد أوحيت لي بفكرةٍ جيدة.

حتى لو لم يكن معك سكين، فوجوده سيطمئن شكوكي في أن تضربني أو تدفعني أو تُصيبني بسوء.

لا، لن يدرك. سأخبرُه بكل ما حدث، لكني سأقول له إنه حدث في نفس اليوم، وليس منذ أيام.

سيُصدِّقني.

كيف يُصدِّقك وعُمرك أربعة عشر عامًا، وكنتَ تنوي سرقتي، وفوق كل هذا؛ تؤكد أنك مغرم بأختك؟ لم أسألك بالمناسبة عن عُمرها.

هي مجرد فتاةٍ صغيرة، وأنت -إذا سمحت لي- مجرد حيوان.

أن تكون قد دخلتْ في علاقاتٍ سابقة مع فِتية آخرين لا ينفي أنها فتاة صغيرة. بعُمر الثالثة عشر، يفترض أن تكون ماتزال تلعب بالدمى. يا لها من مسكينة. آسَفُ كثيرًا عليها.

ما الذي قد تعرفه؟

تقول هذا لأنك مريض. لا بد أن فتى من هؤلاء يُحبُّها حقًّا، ولا يسعى لاستغلال جسدها.

حدود؟

لا أحد يرسم حدودًا أمامكم. لكن أنا سأرسمها وستخرج من هذا الحمام رجلًا مختلفًا. أُقسِم لك على هذا. ستخرج من هنا رجلًا جديدًا، بنفس الطريقة التي أُدعى بها ليتا.

نعم. الآن بات اسمي ليتا.

لا تتحامق أكثر. لا أطيقك حينما تتحامق بهذه الصورة.

أوه، صحيح؛ لقد نسيتُ تمامًا. سأُحضرها لك الآن. أعتذر إليك ألف مرة. شغلتني رغبتي في إخبارك بما قاله لي الكاهن بخصوص حالتك.

لا مشكلة. لا تكن لجوجاً، بعد قليلٍ ونحن نأكل سأُخبِرك.

أعتقد أن ما تبقَّى هو ست أو سبع شرائح.

لا، كلُّها لا.

سآكل واحدة. لا أرغب في الطبخ. لقد تأخَّر الوقت وأنا مُنهَكة للغاية يا عزيزي؛ فأنت تفرض عليَّ الكثير من العمل.

آسفة كثيرًا. تضايَق كيفما تشاء، لكني سآكُل شريحة.

لا، لا أرغب كذلك في تقطيع الطماطم الآن. ارضَ بشرائح اللحم وغدًا باكرًا سأكون أكثر قوةً وسأُعِد لك شرائح اللحم على طريقة نابولي. هل تحبها؟

جميل!

داخل محل الجِزارة نفسه، وفي أحد الجانبَين يوجد متجرٌ أشتري منه الحَساء والشعرية وغيرها، من هناك سأجلب الجُبن وصلصلة الطماطم ولحم الخنزير المُقدَّد. أعتقد أنها لا تحتاج إلى ما هو أكثر من هذا.

لا، لم أُعِدَّ قط شرائح اللحم على طريقة نابولي.

الحقيقة هي أنني لم أُحِب الطهو قط. أطهو ما آكله فقط، لكني لا أستمتع بالطبخ وأنفر منه، رغم أن هناك من يعشقه مثل خالتي ألثيرا التي تعشق صنع الكعك وتزيينه بالكريما وحلوى اللبن عبر قُمع خاص، أما أنا يا سانتي، فلم أحبه قط.

اعذرني، سأذهب الآن، وعوض تلهّفك على شرائح اللحم، كان عليك أن تشكرني على كل المجهود الذي أبذله من أجلك.

أطهو لك وأتحدَّث معك وأقلق عليك وأتحدَّث مع الكاهن عن حالتك.

نعم، سأقصُّ الأمر عليك بعد قليل.

سأذهب وأعود لاحقًا.

* * *

تأخَّرتُ قليلاً. أعرف هذا بالفعل.

لا تَتَحدَّنِي. اضطُرِرتُ إلى تقطيع شريحة اللحم إلى قِطَع صغيرة جداً. أسناني في حالةٍ بائسة يا فتى. لا أستطيع المضغ تقريباً. أمضغ بالكاد بأسناني الأمامية. لم تتبق لي ضروس، لكن تقطيع اللحم إلى قِطَع صغيرة، إلى نسائر يُمكِّنني من أكلها. لن أكذب عليك. ما أفعله في الواقع ليس مضغ القطع بل ابتلاعها.

انتهينا، انتهينا. كنت أخبرك فقط عن سبب تأخري، يا لك من متسرّع. لا تكترث أبداً لما يحدث لغيرك.

أنت جوعان دائمًا. مجرد بائس.

يمكنك أن تمدَّ الورقة.

ياه! أعتقد أن إحدى الشرائح علقت.

نعم، دفعتها، لكنها تأبى العبور. ماذا تريدني أن أفعل؟ ليس ذنبي، الأفضل أن تجرّ ما تستطيع منها وتفلت الورقة، وسأخرجها لأرى لماذا علقت.

صحيح، بالفعل. إنها أسمك من اللازم، ولن تمُر. يا لَلنحس. لقد كررت على الجزار ثلاث مرات أن يرققها قدر ما يستطيع.

أترى؟

كنتُ مُحقَّة حينما قلت إنه على الرغم من أنهم لم يعودوا يسيرون الشوارع بحبال الـ«بوليادوراس» ومعاطف البونتشو وسراويل البومباتشا وحزام العملات، فإنهم جميعًا من الـ«غاوتشو». يفعلون ما يحلو لهم، والآن أنت يا مسكين بسبب ذنب ذلك الجزار الـ«غاوتشو» سينتهي الأمر بعدم تناولك شرائح اللحم.

سأبقيها لي للغد، كثير من شرائح اللحم فجأة! لكن بما أني قد طهوتها في الفرن، فلن يبق بها كولسترول. لا تتحامق يا سانتي، سآكلها غداً، لا أفكر في رميها في القمامة. إلقاء الطعام في ظل الجوع الذي يعاني منه العالم الآن هو خطئية أسوأ من خطيئتك وأختك.

لا تتصرف هكذا؛ مجرّد شريحة لحم لن تغيّر حياة أحد.

تَحلَّ بقدرٍ من الإيجابية. أنت دائم الشكوى.

لن يكون ممكنًا كذلك أن أقدمها لك بطريقة نابولي، مع الصلصة ولحم الخنزير المُقدَّد فإنها لن تمرَّ بالتأكيد. ستُضطَر إلى نسيان ما وعدتُك به مُنذ قليل. علينا أن نستمرَّ على نفس المنوال، لا أكثر ولا أقل.

لا؛ فشرائح الدجاج أيضًا أكثر سُمكًا.

أنت بلا ذوق! كيف تجرؤ على قول إنك مللت شرائح اللحم؟ مع معاناتك الجوع طوال حياتك؛ يجب أن تكون ممتناً لا أن تتذمر وتتململ.

حسناً، إن لم تردها فلن أشتريها غداً، هذا أفضل لي، لن أضطر للتبضع والطهو لك كالحمارة، سنعود ساعتها إلى البسكويت والـ«بالميز» والرقائق.

أها، أترى كيف تسير الأمور؟

نعم. سأعدّها لك بنفس الطريقة. لا تقلق. أنا مُنهَكة فعلًا، لكن خدمتك كما تستحقُّ ممتعة بالنسبة لي، وإن كان القس لا يفكر بمثل هذه الطريقة بكل تأكيد.

قال لي أمورًا كثيرة. وبَّخني في البداية على مصادقة مثلك مقابل سيدات أُخريات. نصحني أن أتوخَّى الحذر لأنه يرى أن الناس من طبقتِكَ يستخدمون الصداقة للحصول على شيءٍ في المقابل، وأن صداقتك لا يُمكِن أن تكون صادقةً بأي حالٍ من الأحوال، وأنك قطعًا تفكر في سرقة مالي أو

أشياء أخرى، ولذا قلت لك إنني أستطيع إقناعه ليحضر هنا يوم الاثنين في اللحظة التي سأفتح لك فيها الباب. وحينما أحكي له سيردّ على الفور بأنه سبق أن حذرني.

لا، أنت تقول هذا لأنك لا تعرف. الكاهن رجل طيِّب ومبارك، وبالمناسبة قلتُ له نفس الشيء عنك، لترى كيف دافعتُ عنك. لكنه على أي حالٍ أصرَّ على أنَّ صداقتنا قائمةٌ على المصلحة، وأنك ربما اخترعتَ حكاية علاقتك الخاطئة مع أختك لآسَفَ وأقلق عليك، ثم تأتي بعدها وتطلب مني المال أو شيئاً آخر من ممتلكاتي.

نعم، بالفعل. أنا أعرف.

لكن عجزتُ عن إخباره بأن صداقتَك قائمة على المصلحة وأنك محبوس في حمَّامي. لا تلعب دور الأبله. كيف أقول له؟ فضَّلتُ أن أُؤكِّد له أنك لست مستغلًّا وأنني أتوخَّى الحذر وأضع هذه الأمور نصب عيني، وأنني أرغب في مساعدتك، لكنني لا أهتدي إلى السبيل الصحيح.

ما تقوله لن يكون مساعدة. إذا تركتُك تخرج فستركُض لتنتظرَ أختك ريثما تصل إلى منزلك، وبسبب الجهل أو انعدام الأخلاق ستحكم عليها وعلى نفسك بالهلاك.

سألني الكاهن إن كانت أختك قد حبلت.

لحسن الحظ.

أجبتُه بأنني لا أعرف وأنني لا أعتقد أنها حُبلى لأنك لم تقل لي ذلك وأيضًا لأن الربَّ لن يسمحَ بأي صورةٍ بحدوث مثل هذا الحمل. ضحك الأب مقهقها حينما سمع ما قلتُه، وقال إن سلطة الربّ ليست نافذة في هذ الأمور، وشرح لي مفاهيم حرية الإرادة وأموراً أخرى لا أتذكّرها.

لا شيء. أجبتُه بأنها ستكون معجزة حينها، لكن وكما أعلم فالمعجزات كذلك مِن صُنع الربِّ، فعاوَد الضحك، من دون قهقهة، وقَبِل على مضضٍ مسألة أنني على حقٍّ وأن الربَّ يتصرف بأشكالٍ شديدة التنوُّع.

سعدتُ كثيرًا. لا يزال أمامنا وقت إذًا، أو على الأقل هذا هو ما قاله لي الكاهن.

وقتٌ للقيام بشيءٍ ما.

أقصد لإبعاد أحدكما نهائيًّا عن الآخر.

صحيح! هذا ما فعله أبواكما؟

يبدو في النهاية أنهما ليسا بالسوء الذي ظننتُه.

لا أعتقد أنك تفهم يا سانتي. أختك المسكينة قد عثرتْ على الخلاص. ويبقى خلاصك أنت، ويوم الاثنين حينما أتركك في النهاية ترحل عن هنا، سأجعل القس يذهب إلى منزلك ويطلب من أبوَيك السماح لي بالتبنّي.

ومن سأتبناه سواك؟ أتحدَّث عنك أنت بكل تأكيد.

* * *

يا لَلحُثالة التي اتضح لي أنك عليها يا سانتي! يحاول المرء فقط العمل على مصلحتك، وكل ما تفعله هو رفع صوتك بكلماتٍ قذرة. جعلتَني أبكي مُجدَّدًا. كنا متناغمين، نتناول شرائح اللحم ونتحدَّث، كلٌّ منا عند جانبه من الباب وفجأةً تُخرج ضدي كلّ هذا الكُره والضغينة والقذارة التي تسكن قلبك.

يجب أن تنفصلا بصورةٍ نهائيةٍ لأن هذا أفضل لكما. هل تتخيَّل مسألة أن تُنجبا أبناءً؟

سيكونون مُشوَّهين ومرضى وفظيعين. أُقسِم لك أن هذا هو ما سيحدث، أم تحسب أن الربَّ يُحرِّم هذه الأمور فقط على هواه؟ لا يا فتى، على النقيض، بل إن الربَّ يُحرِّم فقط كل ما يضرُّ بني البشر إن هم فعلوه، لا أكثر ولا أقل.

حسنًا، إذا كنتَ لا ترغب في أن أتبناك، فلن أتبناك. لا تقلق. امكث في الكوخ وافعل ما يحلو لك بحياتك؟

ما رأيك أن تترهبن أنت وأختك؟

لستُ مجنونة. لا تكن فظًّا.

هذه فكرة خطرتْ للكاهن. قلتُ له إن قلبك طيِّب رغم من ضعف ميولك الربَّانية.

حسنًا، لن يجبرك أحد على شيء.

لا، فلتهدأ.

أظن أنك تأخذ كل الأمور على صدرك. هكذا يُعاني المرء كثيرًا في حياته. أنا أعرف ما أقوله. يجب عليك أن تُواجِه مشاكلك بقدرٍ أكبر من الهدوء.

حسنًا، وقتها عليك أن تنسى أنني تحدَّثتُ مع الكاهن. لن يفصلك أحدٌ عن أختك ولن أتبناك، وإن كنتَ تحب ألا يأتيَ الكاهن يوم الاثنين حينما أفتح الباب فلن أحضره وانتهينا. كما تحب، لكن حينها سأُضطَر إلى الاتصال بالشرطة.

لا ترغب أيضًا في أن أتصل بالشرطة؟

لكن يا فتى يجب أن أتخذ احتياطاتي. أنت متقلب جدًّا. تنتقل بسهولةٍ من حالةٍ نفسية إلى أخرى، وأنا لا أجرؤ على البقاء معك وحدي لحظتها.

سأتصل إما بالكاهن وإما بالشرطة. القرار لك.

ليس عليك أن تتخذ قرارك الآن. خُذ وقتك؛ فقد تأخَّر الوقت أيضًا ويُغالبني النُّعاس إلى حدِّ الموت. قل لي قرارك غدًا. أمامنا يوم الأحد بأكمله.

نعم، سأذهب للنوم.

هذا لأنك شاب. هل تعلم مدى صعوبة هذه الأيام عليَّ؟ لا أظنك قادراً على التخيل، ولا أحدّثك فقط عن الجانب البدني، بل الذهني أيضاً. جعلتَني أتذكَّر أدقَّ تفاصيل ما حدث، وفوق هذا أنت شخص مليء بمشكلاتٍ شديدة التعقيد.

لا تأخذ الأمور بمثل هذا السوء. لم أملّ منك، كيف يخطر لك هذا؟ بل على النقيض أنت تمنحني الصُّحبة، بل وأفضل صديقٍ لي. اسمع: أنا أُحبُّك لدرجة أنني عرضتُ عليك تبنِّيَك. الأمر بعيد عما تظنه. أُقسِم لك أن الإنهاك يقتلني.

لم أَعُد قادرة. أنا متأسفة.

تصبح على خيرٍ ونومًا هنيئًا.

* * *

هل نمت؟

اعذرني إن ضايقتك، لكني أود الحديث معك لثانية.

حين كنت أهمّ بتناول آخر كوب ماء لي في اليوم من الثلاجة كالعادة، وأضع آخر ممتلئًا فوق الطاولة الجانبية، تذكرت شيئاً مهماً لا أظن أنني قلته لك سابقاً.

شكرًا. أتتذكَّر حينما قلتُ لك إن ديليتا بعد الإقلاع انعطفتْ ووجَّهت الطائرة مرةً أخرى نحو المَدرَج وخفضت ارتفاع الطائرة ببطءٍ ومرت بالقرب من موقع جسد أرنولد المصاب، لدرجةٍ جعلت الأمر يبدو تقريبًا كأنها قد حفَّتْه، قبل أن تعود لاعتلاء السموات مُجدَّدًا وتبتعد.

لا، اسمه أرنولد. لن نبدأ هذا الجدال مُجدَّدًا. بالنسبة لي لم يَعُد اسمه خوسيه على الإطلاق.

كفى! هذه المسألة لا تهمُّني. هل تتذكَّر ما قصصته عليك أم لا؟

أنا سعيدة بتذكُّرك. هذا يعني أنك تابعتَ قصتي باهتمام. حسنًا، سأعود إلى ما كنت أقوله: حينما حدث هذا جرى شيءٌ آخر.

ما حدث أن الرجل رفع ذراعه السليمة.

حرَّكها من ناحيةٍ إلى الأخرى كأنه يُحيِّي بشيء من السعادة أمي على نُزهتها الجوية.

نعم، هذا ما أظنه أيضًا، فكيف لرجلٍ مثله أن يحييها بسعادة وهو مصاب! لكن... ما سبب هذه الإشارة إذًا؟ لم أتمكَّن قط من فهمها. ربما تكون أنت قادرًا، فرغم افتقارك للخيال، إلا أنك خبير بأمور الشوارع أكثر مني، وقد تضيء لي هذه اللحظة شديدةَ العتمةِ في القصة.

كيف له أن يطلب المساعدة منها؟

هل تظن أن الرجل لم يكن يعرف بصورةٍ مثالية أن أمي لم تكن قطُّ لتقدر على سماعه من قُمرة قيادة الـ«فارمان» بضوضاء مُحرِّكها التي تُصِمُّ الآذان.

لا، لم يكن يطلب المساعدة. هل يطرأ لك شيءٌ آخر؟

أها، هذا قد يكون صحيحًا؛ أن تكون الإشارة لتحذيرها من شيءٍ ما،

أن عطلاً أصاب المحرك مثلاً ولذا يطلب منها أن تتوخّى الحذر.

صحيح، أعتقد أنني بِتُّ أعرف.

أَخبَرها أرنولد أن الأمور تسير جيدًا، وطلب منها الهبوط في اتجاه الرياح وليس في الاتجاه المعاكس كما فعلتْ في النهاية.

شرحوا لي المسألةَ ذات مرة. لم أفهمها جيدًا، لكن وَفقًا لما فهمتُه، فإن ديليتا لو هبطتْ في عكس الاتجاه الذي هبطت فيه، لم يكن الحادث ليقع قط.

هذا هو ما كان الرجل يُخبِرها به بكل تأكيد.

لا، لم يكن رجلًا طيّبًا. مسعاه بكل تأكيدٍ كان ألا تدمّر أمي طائرتَه المُستورَدة حديثًا من فرنسا.

لم يكن يُدعى خوسيه ولم يكن مُغرمًا بها. سبق أن انتهينا من هذا الموضوع، حينما يظهر شيء في رأسك، تصبح عنيدًا جدًّا يا سانتي. مسألة خوسيه سنتجاهلها. هي مسألة لا يمكن حلها بينك وبين الواقع، لكن مسألة أنه كان مُغرمًا فلن أسمح لك حقًّا بها. لقد بذلتُ جهدًا في إفهامك أن الرجل المُغرَم لا ينزع قميص المرأة التي يحبها أو تنورتها بالصفع.

ما هذا الذي تقوله؟

أعرف هذه المسألة لأنني أعرفها يا عزيزي.

لا، لم يَرَ الغاوتشو الإشارة لأنه كان بعيدًا جدًّا كما قلتُ لك.

لا، لم يكن هناك أحدٌ آخَر. لا تتحامق. أعرف لأنني أعرف وانتهينا.

كفى. لقد مللت.

* * *

ما الذي ترغب فيه الآن؟ كنتُ ذاهبة إلى الفراش، لكن حينما سمعتُ كلمة «ليتا» لم أستطع سوى المجيء. أنت حقًّا تعرف كيف تُعامِل امرأة.

لا أعرف. أنا خائفة.

وإذا أُصبتَ في هذه اللحظة تحديدًا بالجنون الذي يُصيبك أحيانًا وأقدمتَ على مهاجمتي بالسكين؟

اتركني أفكر. سأردُّ عليك غدًا. رأسي لا يتجاوب معي الآن بصورةٍ جيدة.

نعم، أراك غدًا، ولا تظن أنني لم أُدرِك أنك لم تَستحمَّ اليوم ويجب أن تخجل من هذا.

متى؟

حسنًا. سأبذل آخِر جهد يُمكِنني القيام به اليوم وأُصدِّق أنك قد استحممت.

تُصبِح على خير.

الأحد، 2 ديسمبر

سانتي!

هل استيقظت؟

أوف. لحسن الحظ! أرعبتَني؛ فأنت محبوس هنا منذ فترة، وقد ارتفعت درجة الحرارة كثيراً. أحدثتُ ضجيجاً حين كنت أتناول إفطاري، وأسقطت ملعقة على الأرضية ولم يصدر منك شيء.

هذا هو ما تخيلتُه.

لهذا طلبت منك النوم لفترةٍ أطول.

لا أتذكر، لكن قلتُها إحدى المرات. ربما لأنك شاب فإنك تحتاج إلى النوم أكثر بقدر حاجتك إلى تناول الطعام.

لا أدري. لا أتذكَّر إن كنتُ أنام كثيرًا حينما كنتُ في مثل سنك، ولا إن كان هذا الأمر بسبب الكسل أو لسبب آخر.

لا تتضايق. لا أريد الجدال. أحضرت لك بعض قِطَع البسكويت لتفطر بينما أذهبُ إلى الجزارة لأشتريَ شرائح اللحم.

نعم، هي الثامنة والنصف صباحًا.

لقد تأخَّر الوقت.

ها هي قِطَع البسكويت. كُلْها، وتصرَّف جيدًا. سأعود بعد قليل.

نعم، كنت أفكر فيما طلبتَه مني.

لا أعرف.

انظر: سأكون صادقة معك، وأتمنى ألا تفكر بسوء، الحقيقة أنني لا أثق كفاية فيك لأفتح لك الباب وأنا وحيدة. صحيح مسألة الشرطة معقدة وقد تسبب لك مشكلات ليس في نيتي أن تواجهها بسببي، لكن ماذا عن الكاهن؟ أي سوء قد يحدثه وجوده معي لحظة تحريرك؟

ربما قد يقول لك شيئًا، لكنه لن يَتلوَ عليك عِظة. لا أظن هذا، وإذا ما تلا عليك عِظةً فأين المشكلة؟ ما الذي قد يحدث؟ فأنت تسمع من هنا وتُخرج الكلام من الناحية الأخرى.

الاحتمال الآخر الذي فكرتُ فيه، ولا أدري ما سيكون رأيك، أنْ تمكثَ لعدة أيامٍ أخرى في الحمَّام. سيسمح لي هذا بمعرفتك أكثر وبصورةٍ أعمق، ولأبنيَ معك ثقةً وأتأكَّد من طبيعة التصرُّف الذي قد تُقدِم عليه عند شعورك بالحرية مُجدَّدًا. عدة أيامٍ إضافية فقط، سأتجرَّأ على فعلها بكل تأكيد.

نعم، أفهمك طبعًا، كيف لا! لابد أن الحر خانق في الداخل، خاصةً مع عدم وجود مَنفذٍ للهواء سوى عقب الباب. يُمكِنني تخيُّل المسألة. يجب أن يكون الهواء قد فسد بالفعل يا عزيزي.

حسنًا، إن أردت الخروج غدًا، فسأحضر الكاهن.

متفقون أم لا؟

لن أُخاطِر على الإطلاق، لقد أثبتّ حتى الآن أنك مضطرب جداً عاطفيًّا.

لماذا يجب عليَّ أن أفهم أسبابك دون أن تفهم أنت أسبابي؟ قل لي! لماذا لا

تبذل جهدًا أنت أيضًا؟ ما الضرر الذي قد يُلحِقه القس بك؟

فكِّر في المسألة من فضلك.

سأذهب إلى الجزارة فقد تأخَّر الوقت كثيراً.

* * *

أعتقد أن الحيَّ بأكمله بدأ يشكُّ فيَّ. أُلاحظ أنهم بدؤوا ينظرون إليَّ بصورةٍ غريبة، كأنهم يفعلونها بطرف أعيُنِهم، وفوق كل هذا يسألونني بالطبع عن أمورٍ لم يسألوني عنها من قبل.

لا أعرف. الجزَّار والبوَّاب على سبيل المثال.

سألني الجزَّار بإيماءةٍ ماكرة إن كنتُ أتناول شرائح لحم أكثر من اللازم خلال الأيام الماضية ونصحني بأن أتوخَّى الحذر، فمع سِنِّي قد تسوء الأمور. كما قد تتخيَّل يا سانتي فقد أجبتُه بأنها لا تبدو لي أكثر من اللازم بأي صورةٍ وأنها قد أعجبتْني كثيرًا بسبب إعداده لها بطريقةٍ شهية، ولكي يتوقَّف عن سماجته اضطُرِرت للقول له بأنه إن كان يضايقه أن أشتري منه هذا الكم من شرائح اللحم، فلن يكون أمامي إلا العودة لشراء اللحم من الجزار الآخر وإن اضطررت للسير لمسافة أكبر، وهو يجهّزها جيداً أيضاً، كما أنه لا يتدخل دون سبب في النظام الغذائي لزبائنه.

نعم، قتلتُه بهذه الحجة.

لم يخطُر ببال المسكين سوى سؤالي إن كنتُ في حاجةٍ لشيءٍ آخر. ثم هنالك البواب الذي يعرف كل شيء، ويخترع ما لا يعرف، وقال لي حين كنت أنتظر المصعد: غريب أن تذهبي يا سيدتي للتبضُّع في يوم الأحد. لم أُجِبْه حتى. بل نظرتُ إليه بأسوأ وجهٍ لديَّ فقط. أعتقد أن هذا كان كافيًا، فعلى

الفور عاد ليدخل بيته.

بالفعل، أنا لا أخرج أبداً في أيام الآحاد. هو يوم راحتي، مثل الربِّ الذي ارتاح يوم الأحد بعدما عمل طيلة الأسبوع في خلق العالم.

هل فكرت؟

هذا جيد. لقد اتخذتَ قرارًا حكيمًا يلائم كِلَينا. ستستمع إلى الكاهن لدقائق. هذا صحيح، لكن في المقابل سأشعر أنني آمنة تمامًا من تقلباتك المفاجئة.

نعم، اتفقنا.

اعذرني على تغيير الموضوع، لكن في الليلة الماضية حينما ذهبتُ إلى الفراش، أدركتُ أنني لا أعرف اسم أختك حتى الآن. لم تقله لي رغم أنك تتحدَّث عنها طيلة الوقت، لكني كنتُ مُنهَكةً لدرجةٍ منعتْني من العودة هنا لسؤالك.

لا يخطر لي أي اسم.

لا.

وفوق كل هذا في أيامنا هذه يُطلِقون أسماء جديدة على الأطفال. كيف لي أن أُخمِّنه! اسمك غريب. أقصد أنك تُدعى سانتياغو، وهو اسم مسيحي وتقليدي للغاية.

آه! معك حق. وهل عرفت جدك؟ هل يشبهك؟

اعذرني. لقد نسيتُ أنكم تعيشون جميعًا واحدًا فوق الآخر وأنك صغير للغاية. المشكلة أنني لم أعرف أيًّا من أجدادي، وهذا كان سبب السؤال.

تمامًا كما سمعت.

ماتوا كلهم قبل ولادتي، باستثناء جدي من طرف أبي، لكن هذا السيد كان يَقضي حياته في السفر. كان لديه أموالٌ كثيرة، حتى أخبروني في يومٍ من الأيام أنه قد مات. كنت في مثل عُمرك حينما مات في أيسلندا، وإن كنتُ غيرَ متأكدة. ربما كان في جرينلاند أو فنلندا، في واحدة من هذه الدول التي تنتهي بـ«اندا».

كيف لي أن أتخيل اسم أختك؟

لا تُصِر.

أنا أستخدم خيالي يا عزيزي. لا تتحامق. ما تقوله لن يُصبِح خيالًا، بل مجرد تخمينٍ ولستُ مُنجِّمة.

لا أحب أن تَدخل في مثل هذه الحالة، أو حينما تسخر من شيءٍ علَّمتُك إياه كما تفعل في هذه اللحظة تحديدًا.

حسنًا، لقد سئمتُ لحد الإنهاك. ما رأيك في مارغاريتا؟

وما السبب وراء ضحكك الآن؟

تصبح أحيانًا أحمق تمامًا يا سانتي. ما الذي كنتَ ترغب في أن أقوله لك؟

ماريكسا؟ بحرفي الكاف والسين؟

هل هذا اسم؟

هل يسمحون بتسجيل مثل هذا الاسم في السجل المدني؟

كيف تغيرَت العادات في هذا البلد يا فتى! هو أمرٌ لا يُصدِّقه عقل. كان من المستحيل في السابق أن يسمحوا بتسمية فتاةٍ بمثل هذا الاسم. كانت هناك قائمة بالأسماء المسموحة ولم يُسمح لأحد بالخروج عنها.

لا أفهمك.

نعم، صحيح. يا للصُّدَف! الاسم الحقيقي وذلك الذي تخيَّلتُه يبدأ بمقطع «مار».

لا، أنت تكذب عليَّ. تفعل ما تفعله فقط لكي تسخر مني.

حسنًا، افعل ما يحلو لك. ادْعُها كما يحلو لك، لكن لا تضايقها مرةً أخرى من فضلك. هي مُجَرَّد فتاةٍ صغيرة. اتركها تكبر في سلام. قلتُ لك بالفعل إنني لا أرغب في الدخول بأي جدال. لستُ مهتمَّة. اليوم هو الأحد. يوم راحتي الوحيد في الأسبوع؛ لهذا إذا سمحت لي، فسأتركك تُسلي نفسك بمُزاحك وضحكاتك وأرحل في هدوء نحو المطبخ لأُعِدَّ شرائح اللحم.

* * *

لقد سقطتُ يا فتى. كنتُ أُوقِد الفرن وسقطت. هل تسمعني؟

لا بالطبع. وكيف لك أن تسمعني؟ ربما قد صرختَ فقط لأنك قد سمعتَ صوت سقوطي ليس إلا. آه! يا للألم! لا بد أن عظم وَرِكي قد تفتَّت إلى ألف قطعة.

نعم! أنا ليتا. لقد وقعت. هل تسمعني الآن؟

لا، لم تسمعني وهذه أقصى درجةٍ أستطيع أن أصرخ بها. أُقسِم لك أن الكلمة الواحدة تسبب لي ألمًا هائلًا. آاه! أنا مُحطَّمة بالكامل. آسفة يا سانتي، لكني لا أظنك ستتناول شرائح اللحم اليوم. اعذرني. أنا غبية. لا أستطيع النهوض. حينما يخفّ الألم بعد فترةٍ سأحاول الزحف حتى باب الحمام، وهكذا ستتمكَّن من سماعي. أتمنَّى أن يخفّ الألم سريعًا. ليت هذا يحدث. آاه! لا أستطيع. أُقسِم لك أنني أموت من الألم. إنه شيءٌ فظيع. أشعر بألف

إبرة تَخِزُني في كل ضلوعي، بل قل تخترق وَرِكي.

نعم! نعم! ليتا هنا مُلقاةٌ على أرضية المطبخ يا عزيزي.

لا، لم يسمعني ولا يعرف كم تؤلمني محاولةُ رفع صوتي ليسمعني. هو أمرٌ فظيع. سأُضطَر إلى تهدئة نفسي وأرى حينها ما الذي يجب عليَّ فعله بما تبقَّى لي من جسد. التفكير. يجب عليَّ التفكير بأي صورة. مع هذا الألم فأيُّ شخصٍ يجب أن يُفكر. هو ألم لا يُحتمل، ليست مشكلته أنه مستمر؛ لا، بل أنه بين الفَينة والأخرى يأتي كوخز إِبَر شديد القوة، مثل الآن. لا أعرف ما الذي سأفعله. لا أعرف.

هل تسمعني؟ يا لَلمصيبة. أنا أسمعكَ بوضوح، لكن لا يبدو أنك تسمعني، وأُؤكِّد لك أنني لا يمكنني التحدُّث أعلى من هذا. أُقسِم لك. هذا هو كل ما تبقَّى لي من صوت. أودّ لو أصرخ، لكني عاجزة. هل تتذكَّر أن ديليتا مرَّت بنفس الشيء مع الرجل حينما دخلت المطار. يظهر أنها هي أيضًا لم تكن تتحمَّل الألم في تلك اللحظة. هو ألم مُختلِف، ليس جسدياً مثل ألمي الآن، بل روحاني: خداع وزيف الذكور على حد علمي. يبدو الأمر كطعنات، طعنات كثيرة تخترق وَرِكي، كلها معًا وكلها في نفس الوقت؛ تَعبُرني ثم تنسحب.

من فضلك توقَّف عن الصراخ يا سانتي. آسفة جدًّا: أسمعكَ لكنكَ لا تسمعُني. لا فائدة. صوتي لا يصل إلى مسامعك. الغاز! يا لحماقتي. محبس الغاز مفتوح! آاه! يا للألم! لا يُمكِنني تحمُّله في بعض اللحظات. هذا هو السبب. بدا لي أن هناك رائحةَ غاز، وفوق كل هذا النافذة مغلقة. اعذرني يا سانتي، فلا يمكنني ترك النافذة مفتوحة حينما تشتد الشمس صباحًا، وخصوصًا في اتجاه الشرق. لو تركتُها مفتوحة لَمِتْنا من الحَرِّ في المساء. أفتحها دومًا بعد انتصاف الظهيرة حينما لا تصبح الشمس في مواجهتها. كيف سأصل إلى المحبس؟ آاه!

لا أعرف كيف، لكني سأنجح. أعدك بهذا. كنتُ دومًا امرأةً بإرادةٍ حديدية. كلُّ من عرفوني قالوها لي، حتى فتاة المَخبَز تقولها لي في كل صباح. سأصل وسأغلق المحبس، حتى لو كان هذا آخِر ما سأفعله في حياتي. أُقسِم لك. لا أُفكِّر في تركك تموت مختنقًا عندك في الداخل. ما زلتَ يافعًا جدًّا ولديك الكثير لتعيشَه. تستحقُّ مستقبلًا. ما لن أتمكَّن من فعله -وآسفة من كل قلبي يا سانتي- هو الوصول للرّف الذي وضعتُ عليه مفتاح الحمام. لن أتمكَّن من فتح الباب لك، لكنك على الأقل لن تموت مختنقًا.

توقف عن الصراخ يا فتى. ألا ترى أنني عاجزةٌ، وأنني مهما جاهدتُ فلن تتمكَّن من سماعي. سماع صُراخك يضايقني أكثر من عجزي عن القيام بشيء.

آاه! أنا أُحتضَر. هناك لحظاتٌ كنت سأفضل أن أموت فيها على المعاناة من هذه الوخزات التي لا تتوقَّف. ظننتُ أن الألم سيقلُّ بمرور الوقت، لكن لا، على النقيض، فهو يزداد سوءًا بمرور الوقت. سأصل إلى المحبس على أي حالٍ يا سانتي. هل أنا على بُعد متر؟ متر ونصف؟ لا، أقل من هذا. أظن أنني قادرةٌ على ملامسة الجزء السفلي من الفرن بقدمي الآن! لا يمكنني إغلاق المحبس بقدمي بالطبع. يجب أن ألف جسدي قليلًا وأن تصبح ذراعاي مكان ساقيَّ الآن تقريبًا. بهذه الطريقة سأصل بكل تأكيد. بعدها سأرفع إحدى يديَّ وينتهي كل شيء، على الرغم من أن ما يؤلمني الآن لم يَعُد الوخزات فقط، بل بدأ يؤلمني الوقت الذي أنتظره بين كل وخزةٍ وتلك التي تليها. أتخيَّلها آتية، كما يحدث الآن، ولا أقدر على تحمُّل الألم. الخيال فظيع. ربما كنتَ محقًّا في ازدرائك له يا سانتي. آاه! مرةً أخرى. يا لَلقبح! لا أُحِب المعاناة الجسدية. لم أُحِبها أبدًا. لا أتقبَّلها. لا تسمحُ لي بالتفكير أو القيام بأي شيء. اعتدتُ على ألم وحدتي على مرِّ السنين، وأيضًا على ألم الخداع

أو ألم الكُره، لكن الألم الجسدي مُختلِف. أُقسِم لك أنني أفضل الموت الآن وفي هذه اللحظة على معاناة خمس دقائق أخرى مما أُعانيه، لكني لن أترك نفسي أُحتضَر يا فتى. لا تقلق. وعدتُك أنني سأصل إلى المحبس وسأصل بأي طريقة كانت. سأتغلب على الألم، كل ما ينقصني هو الإرادة.

لا تُصِر. كل هذا سيذهب هباءً. فمهما حاولتُ فلن تسمعني. على أي حال، سأستمرُّ في الحديث معك. لا أعرف. هو أمر يجعلني أَفضل. لا يُشعرني بالوحدة ويُلهيني عن الألم. آاه! لكن الألم يعود يا فتى. تعود الوخزات دومًا، كقِطَع زجاجٍ تُغرَس كل مرةٍ أعمق وأعمق. حسنًا، كفاني شكوى. سأُحاول التحرُّك؛ الدوران. لا يُمكِنني أن أنتظر أكثر من هذا، فتسريب الغاز مستمرٌّ وباتت رائحتُه واضحةً أكثر وفي أي لحظةٍ ستبدأ في شمِّه أنت أيضًا، عندك في الحمام، وسترتعب. واحد، اثنان، ثلاثة! آاه! أنا كمن قُطِعت من منتصف جسدها. لن أنجح. آاه! لحسن الحظ! يبدو أنني نجحتُ في الدوران نحو خمسة عشر سنتيمترًا أو ربما عشرين. آاه! لم يذهب مجهودي هباءً. سأرتاح الآن قليلًا يا سانتي. سأستعيد قُوَّتي وأُواصِل، وأنا هكذا مقسومة إلى نصفَين سأنجح. لا تقلق. لا تنقصني الإرادة. الجميع يُخبِروني بهذا. سأرتاح وبعدها أعود. لن يُوقِفني أي شيء. لستُ فتاةً صغيرة مُدلَّلة. سترى هذا. آاه! يا لَقوةِ هذه الوخزات! اعتنيتُ بنفسي طيلة حياتي لكيلا أُعاني، وانظر لما حدث لي. يا لي من حمقاء! ربما لم يَجدُر بي أن أعدّ شرائح اللحم لك اليوم، إنك حتى قد سئمت من تناولها. كانت حماقة. أعترف، لكنها كانت من أجل تغذيتك، أو لكي تُحبَّني قليلاً. هل تُحبُّني؟ لا أعرف. لا أظن. كلٌّ منا بالكاد يعرف الآخر. مُجرَّد ثلاثة أيام أو أربعة، لكنها بالنسبة لي أجمل ساعات حياتي، وحتى لو لم تُصدِّقني، فمعك حق. كنتُ سعيدةً في هذه الأيام وتعلمتُ كيف أُحبُّك، على الرغم من شخصيتك. صدِّقني. آاه! مرةً أخرى. يا لَلرعب!

لقد وقعتُ يا سانتي. هذا هو ما حدث. فتحتُ محبس الغاز وأشعلتُ الثقاب وبينما أنحني لأُوقِد الفرن -وهو ما يجب أن أفعله بسرعة لكيلا ينطفئ الثقاب- فقدتُ اتِّزاني فجأةً، وبووم! سقطتُ على الأرضية. أظن أن وَرِكي كُسرتْ أو عظم فَخِذي أعلى الساق. أو ربما الاثنان معًا. لا أعرف. كل هذه المنطقة تؤلمني. لا أعرف أيضًا لماذا أحكي لك وأنت لا تسمعني.

لا تصرخ باسمي. توقَّف عن السؤال أيضًا. من فضلك يا فتى. أنت تُوتِّرني. تُشعرني بالذنب أكثر، كانت حماقة، لكن لا ترتعب، لا تَخَف، لن تختنق. سأَصِل إلى المحبس حتى ولو كان هذا آخر ما سأفعله. أؤكِّد لك هذا. ها أنا ذا. واحد، اثنان، ثلاثة! آاااه! لا أقدر. هذا أمر لا يمكن تَحمُّله، لكني تحرَّكتُ قليلًا. أعتقد أنني سأَصِل بعد أربع محاولاتٍ أخرى أو خمسٍ، أو أن رأسي سينفجر قبلها من شدة الألم. ليتني أنجح فعلًا وأتمكَّن من الوصول وإنقاذك. آاه من الوخز! ها قد جاء مرةً أخرى، كقِطَعٍ صغيرة من الزجاج، كطعنات. لا أتمنى ما أمرُّ به لأحد، حتى ابنتَي خالتي وكلتاهما على قيد الحياة. هو أمر لا يُصدَّق يا سانتي. إحداهما أصغر مني. أَكبُرها بعامٍ وعدة أشهُر، لكن الأخرى ستُكمل عامها السادس والتسعين وهي في أتم صحة. تَخرج لتناول الشاي مع صديقاتها أو لِلَعب الورق في كل مساء تقريبًا. لا أتمنَّى حتى لأيٍّ منهما تَجرِبةَ ما أُعانيه في هذه اللحظة. أُقسِم لك، حتى ولو كنتُ أكرهُهما بكل روحي. آاه! لا أقدر. يا لَلألم!، لكنَّ الألم لن ينتصر عليَّ. حينما أضع فكرةً في رأسي، لا أحد يَقدِر على إخراجها. ها أنا ذا. واحد، اثنان، ثلاثة! آاه! لا أُطيق الألم، لكن أنا بِتُّ أكثرَ قُربًا بعد هذه المحاولة الأخيرة. آاااه! كانت أفضلَ المحاولات. أعتقد أنني بعد ثلاث محاولاتٍ سأصل إلى المحبس. ليتني أتحمَّل. أنت تستحقُّ يا فتى. كنتَ صُحبةً عظيمة بالنسبة لي. أعتقد أنك أكثر إنسانٍ أحببتُه في حياتي بعد أمي. هل تُحبُّني؟ لا، بكل تأكيد.

أنسى دائمًا أنك تعجز عن سماعي. أنا أتحدَّث في النهاية وحدي كمجنونة، لكن فلأُخبِرك بالحقيقة: دومًا ما تحدثتُ وحدي. هي عادة. أُفكِّر بصوتٍ مرتفع جدًّا. ومن سيُدرك شيئًا مما أقوله؛ إن لم يوجد من ينصت إلى ما يجري لي؟ أنا وحيدة دومًا وطيلة أيام حياتي، حتى حينما كنتُ أعيش مع خالتي. الوحدة مؤلمة. ألمها مُختلِف، لكنها مؤلمة. يبدو أنني أبتعد عن المسألة، فما يجب فعله الآن هو بذل جهدٍ إضافيٍّ والقيام بمحاولةٍ أخرى. واحد، اثنان، ثلاثة!

* * *

أعتقد أنه أغمي عليّ من شدة الألم؛ أو أنني نمتُ من الإنهاك ليس إلا. لا أعرف. حدث ما أفقدني وعيي. يا للأسف. كم مرَّ من وقتٍ يا تُرى؟ أم أنه الغاز؟

نعم. أنا هنا. هل تسمعني؟ لا، لم يسمعني. رغم أن فمي صار أقرب لباب الحمام. آآاه! لا يوجد حل. الوخز مستمر. ظننتُ للحظةٍ أنه قد انتهى وأنه لن يظهر مرةً أخرى، لكن كنتُ مخطئة. كانت الوخزات تنتظر مُترقِّبةً أن أنساها وعادت لتُهاجم بنفس القوة المعتادة أو ربما أكثر. يا له من وهمٍ! وهم آخر! أتعلم يا سانتي؟ أُعجِبتُ دومًا بقرار أمي وشجاعتها. لا أقصد شجاعتها أو قرارها في النهاية. لا، لا أقصد هذا؛ فهذا كان نتيجةً لسلسلةٍ من الأحداث التي جعلتْ منهما ضروريَّين. ما أُعجِبتُ به دومًا بخصوصها هو شجاعة امتلاكها لحُلم، لمسعى، لهدفٍ ترغب في الوصول إليه. يجب أن تتحلى بشجاعةٍ كبيرة لتحلم بشيءٍ ما. لا أعتقد أن الوصول إليه أو عدم تحقيقه بالمرة يُعَد جوهريًّا بنفس صورةِ أن تعيش حياتك تُلاحِق هذا الحلم، لأنك أحيانًا قد يقف الحظُّ بجانبك وأحياناً لا! لكنّ المهم هو مواصلة التمسُّك بنفس الحلم لفترةٍ طويلة من الزمن. أما أنا فلم تكن لي أحلام. لم أتحلَّ بالشجاعة

ولم أُضطَر إلى اتخاذ أي قرارٍ حاسم. يمكنك أن تقول إنني قد عشتُ فقط، أو ربما من الأفضل القول إنني نجوت. أعتقد أن الفكرة الوحيدة التي هيمنتْ على رأسي منذ بدأت أدرك كانت فكرةَ الموت. الفكرة الوحيدة: الموت مرةً واحدةً وللأبد، لكن أظن أن الموت لا يمكن اعتباره تحت أي ظرف حُلمًا. لم أتمكَّن حتى من الموت. لم أحظ حتى بالحظ الكافي لتحقيق المسألة. انظر إلى سنوات عمري. هي أكثر بكثيرٍ مما يصل إليه أناس لم يرغبوا أو يفكروا قط في الموت. هو أمر غريب. آاه! مع كل مرةٍ تزداد قوته. الوخز. سأقوم بدوران آخر نحو المحبس. ها أنا... واحد، اثنان، ثلاثة! آاه! أنا أُحتضر. أنا مقسومة إلى نصفَين. لم أَعُد أشعر بساقيَّ، كأنهما معلقتان من جسدٍ آخر لا يخصّني، كأنهما جزء زائد. لم تعودا تؤلمانِني. الألم يبدأ من فوقهما. كل الأشياء معًا.

بِتُّ قريبةً للغاية يا فتى، فلتهدأ. دوران آخَر وسأصل كما سبق أن وعدتك، لكنك بكل تأكيدٍ لم تسمعني حينما وعدتُك، ولا تسمعني الآن أيضًا، لكن هذا لا يهم. كنتُ أقول لك منذ قليل إن إرادتي قوية، وها هو دليلك الآن. أنا قريبةٌ للغاية. عزمتُ على القيام بالأمر وبالاجتهاد والمعافرة ها أنا ذا أُحقِّقه. المشكلة يا سانتي أني سأستغرق عدة دقائق حتى أستعيد قُوايَ وأجمعها للقيام بالدوران الأخير. ستُضطرُّ إلى الانتظار. كن صبورًا وإن كان يصعب عليك. آاه! الألم فظيع! لا فكرة لديك عما أُعانيه الآن لأُنقِذ حياتك. آاه! لن أنتظر أكثر من هذا. هكذا تسوء الأمور. أعتقد أنني لا أستعيد أيًّا من قوايَ عبْر الراحة، بل على النقيض، لا أتعافى ولا أرتاح من الأساس. كل وخزةٍ جديدة تسحب مني الهواء القليل المُتبقِّي لي. هذه هي الحقيقة. هيا يا ليتا! إرادة! عزم! لفة أخيرة ليس إلا! هذا هو كل ما ينقص. يجب أن يتحلَّى المرء بالجُرأة، أن أكون شجاعة كما فعلتْ ديليتا. مثلها تمامًا. هيا! واحد، اثنان، ثلاثة!

* * *

لماذا أنت مُستاء هكذا يا سانتي؟

ما الذي حدث؟

أعتقد أنني قد فقدتُ الوعي مُجَدَّدًا بسبب الألم، أو ربما بسبب الغاز، لكني لا أفعل هذا عن قصدٍ يا عزيزي. هنالك لحظات لا أستطيع فيها تحمّل هذا الألم، وحينها أفقد الشعور بكل شيء، كأنني نائمة.

لا تتصرف هكذا، لقد وصلتُ بالفعل. لا تُفسِد ما فعلتُه من فضلك. سأرفع يدي وينتهي الأمر، وفي غضون ثانيةٍ سأغلق المحبس.

نجحت. أغلقتُه للتو. لم يَعُد الغاز يتسرّب. أُقسِم لك ولا حتى نفحة قليلة منه.

لكن، انظر إلى ما آلت إليه الأمور؛ في الوقت الذي تمكنت فيه من إنقاذ حياتك بعد جهدٍ جبار، تبدأ أنت في التفوّه بقاذوراتك، ليس ذنبي أنك لا تسمعني، حاولت الصراخ، حاولت أن أخبرك بما يحدث في كل لحظة، مرة تلو مرة، لقد قصصت عليك ببراعة تفاصيل ما مررت به طيلة هذا الوقت.

آاه! لقد عادت الوخزات. يا لَلرعب. آاااه! أنا أُحتضَر من الألم وفعلتُ كلَّ ما فعلتُه لإنقاذك من الاختناق ومن الموت المُبكِّر، من موتٍ لا تستحقُّه. لا بد أنك بكل تأكيدٍ لا تُدرِك مبادراتِ الآخرين ولا تُفكِّر إلا في ذاتك. لا يمكنك النظر إلى ما هو أبعد من أنفك. أنت أناني تماماً. لا تنظر إلى الأسباب. إذا لم أكن صادقة، فانظر إلى مسألة أختك؛ فعوضًا عن تركها في سلام، كلُّ ما ترغب فيه هو البحث عنها والذهاب لتحطيم حياتها تمامًا. يجب أن تتعلم الإنصات قليلاً لمن يُريدون مصلحتك مثلي، أو مثل الكهنة، والخروج من هذا السجن الذهني الذي تسكن فيه. حسنًا، لن أُنكِر أنني من حبستُك في هذا الحمَّام، لكن أظن أنك يجب أن تعترف أنت أيضًا بأنك كنت حبيسًا منذ

فترة، بل سأقول إنك كنت حبيسًا بعدما أغلقتَ على نفسك جدران رأسك الأربعة بمفتاح، والربُّ وحده يعرف منذ متى وأنت هكذا.

كفى يا فتى. أنت تتخطَّى حدودك.

لن أسمح لك بمواصلة التفوُّه بهذه الوساخات التي تصرخ بها بحقي. آاه! يا لَلألم! فعلتُ كلَّ ما فعلتُه من أجلك. لا أستحقُّ هذا. أردت في البداية إعدادِ شرائح اللحم لك وتزويد جسدك ببعض البروتينات لأنك في حاجة إليها. لم أحتج سوى النظر لك لأكتشف هذا، فأنت نحيف جداً، وبعدها، بعد أن بتُّ مقسومة لنصفين؛ لم أبخل عليك بجهدٍ ونجحتُ في إغلاق محبس الغاز، وإلا كنتَ ستموت. من كان يمكن أن يأتي لإنقاذك؟ محامي القرية؟ آاااه! يا لَلقبح. آه لو أعرف ما يعانيه جسدي؛ كأنها رماحٌ تُغرَس فيَّ، كأن جمعًا من الهنود يُهاجِمونني وكلهم يبتدعون سُبلًا للتصويب على فَخِذي في نفس الوقت.

هذا أمرٌ لا يُصدَّق. أُقسِم لك أنني لو سمعتُك تتفوَّه بحماقةٍ أخرى، فسأفتح الغاز مُجدَّدًا لنموت نحن الاثنين معًا، لتتعلم التحلّي ببعض الكرم، لكي تُصبِح مسيحيًّا قليلاً. سيفهمني الربُّ. فأيَّ مستقبلٍ سيكون لك بالصورة التي أنت عليها؟ أنت الآن لص، وطبعًا ستُصبح بعدها قاتلًا أو مُغتصِبًا. لا أعتقد أن هناك احتمالاتٍ أكثر من هذا لديك. كنتُ أرغب في منحك احتمالاتٍ أكثر، لدرجة أنني تجرَّأت على إخبارك برغبتي في تبَنِّيك، لكن لا؛ أنت تبدو كالشيطان نفسه وتعجز عن الخروج من الجحيم الذي ابتكرتَه لنفسك. آاااه! يا له من ألم! ليس لديك أيُّ فكرة، أو حتى قلب. أنت حيوان. هذا ما أنت عليه.

انتهينا. لقد فاض الكيل. صبري له حدود. ماذا كنتَ تظنّ؟ هل اعتقدت أنني يمكن أن أسمع القذارة تلو الأخرى دون فعل شيء؟ لا يا

عزيزي، وألف لا؛ هناك حدود لكل شيء. لقد أخطأتَ معي، أخطأتَ بشكل متوحش وقد سبق أن حذرتك. لقد فتحتُ محبس الغاز مُجَدَّدًا.

نعم. اصرخ كما يحلو لك، لكني فتحتُه مُجَدَّدًا.

لم يَعُد يهمُّني الآن ما قد تقوله. سنموت نحن الاثنين معًا ليس إلا. ربما ستموت بعدي بدقائق لأنك أبعد عدة أمتارٍ من الفرن ولأنك أصغر سنًّا، لكن على أي حالٍ ستموت بعدها بقليل. آسفة، لكن أعتقد أنك جلبتَ هذا على نفسك. آاه! يا ربي! كفى من هذا الألم! لحُسن الحظ ها هو الغاز يخرج مرةً أخرى. لم يتبق لي إلا قدر قليل من المعاناة. تصرَّفتُ جيدًا طيلةَ حياتي، بل إنني أشعر أن ما فعلتُه للتوِّ كان أمرًا من السماء، كرسالةٍ ربانية، كتصرُّفٍ يضع شيئًا من العدل، هنا في الأسفل في عالم الفانين. كان قدرك أن ترتكب الموبقات، وقد بدأت بالفعل في ارتكابها، التجوُّل بغرض السرقة على سبيل المثال أو ما فعلتَه سابقًا مع أختك. أن تموتَ الآن سيَمنحُك الخلاص بصورةٍ ما، من كمٍّ هائلٍ من الفظائع التي سترتكبها في المستقبل.

استمر، استمر ولا تتوقَّف. لا يهمُّني. لم تَعُد تهمُّني سفاهتك.

إنني أُنقِذك بتصرُّفي هذا، حتى إن لم تفهمْني. وأُنقِذ أيضًا من ناحيةٍ أخرى أناسًا كثيرين كانوا سيعانون من شرورك في الأيام القادمة. لا توجد طريقةٌ ليُعدِّل من هم مثلك حياتهم. لا طريقة بالمرة. أنتم كارثة وستظلون هكذا دومًا. فيكم كل خِصال الغاوتشو. هو أمر في جيناتكم. هذه هي الحقيقة. انظر إلى كل الأمور التي فعلتُها من أجلك ولم أَصِل إلى أي شيءٍ على الإطلاق، باستثناء أختك. أعتقد أنني أنقذتُها. مارغاريتا هذه أو أيًّا ما كانت تُدعى، مازالت يافعة جدًّا المسكينة، ومن يدري؟ ربما قد يتغيَّر الزمن يومًا ما وتُصبح امرأةً شريفة. لنَتَمنَّ أن تكون عائلةٌ جيدة من نصيبها، عائلةٌ محترمة تقلق على تعليمها وتربيتها وأخلاقها. ليت هذا يحدث! آاه! ها هو

الوخز مجددًا. آاه!

خفيف هو الهواء يا فتى. يُمكِنك أن تُواصِل الصراخ بكل قوّتك. يُمكِنك أن تفعل ذلك طيلةَ الوقت، أو بقدر ما يسمح لك الغاز. لم أَعُد مُهتَمة. لم أَعُد أشعر حتى بالوخز. ولا أسمع حتى الكلمات التي تَسبُّني بها. كلُّ ما أسمعُه هو دمدمة. مُجَرَّد دمدمة. فحيح بعيد لشيءٍ لا أعرف حقًّا من أين يأتي. وداعًا يا سانتي! معرفتُك كانت جميلةً لكنَّي آسَف على شخصيتك. يُغالبُني النُّعاس. أحتاج للنوم. أريد أن أنام الآن إلى الأبد. اهدأ وحاول أنت كذلك أن تنام. ستشكرني في النهاية. لماذا تريد أن تعيش؟ أُقسِم لك أنك لن تفتقد أيَّ شيء. لم أَعُد أستطيع. أحتاج إلى النوم. سيرى كلٌّ منا الآخر في السماء. لا أعرف. هناك؟ ربما لا. لا أظن؛ فأنت أيضًا لم تفهم أمي، لم تفهم أن ما هو أخف من الهواء، رغبة المرأة.

محمد الفولي: قاص ومترجم وصحفي مصري، مواليد القاهرة عام 1987، حصل على درجة الليسانس في اللغة الإسبانية وأدبها من جامعة القاهرة. يعمل حاليًا محررًا بالقسم العربي بوكالة الأنباء الإسبانية، وينصبُّ اهتمامه الأساسي على المزج بين الكتابة الرياضية والأدب.

صدر له في الترجمة:

- «الشرق يبدأ في القاهرة» للكاتب الكولومبي إكتور آباد فاسيولينسي.

- «حكاية عامل غرف: مختارات من أدب كرة القدم الأرجنتيني».

- «أغرب الحكايات في تاريخ المونديال» للكاتب الأرجنتيني لوثيانو بيرنيكي.

- «لماذا كرة القدم تُلعب 11 ضد 11» للكاتب الأرجنتيني لوثيانو بيرنيكي.

الأعمال الكامله
t.me/kotbhm

FEDERICO JEANMAIRE

LIGHTER THAN AIR

زيادة الثقة تؤدي إلى سقطة السارق، أو ربما اندفاع المراهقة، شاب في الرابعة عشرة يسطو على امرأة مسنة في التاسعة والثلاثين من عمرها. من الناحية النظرية، لا يمكن أن يحدث شيء خاطئ. لكن ما حصل خطأ. قبل أن يتمكن الشاب من إتمام مهمته يتم قفله في الحمام. سيكون عليه الآن أن يسمع قصة حياة تقترب من نهايتها، صوته لا يهم، لقد آن للعجوز أن تتحدث ، ويجب عليه أن يستمع.

«أخف من الهواء» رواية انقلاب كامل، يبني فيديريكو جانماير ببراعة مونولوجًا لا ينسى، حادًّا ومثيرًا ومبهرًا. رواية رائعة تأخذك لمفاجآتها حتى الصفحة الأخيرة.

ISBN: 978-1-988483-80-1

9 781988 483801

مسعى للنشر والتوزيع
Masaa Publishing & Distribution

فيديريكو جانمير

أخفُّ من الهَواءِ